



العربية بين الحضارة والحداثة

د. مصطفى حركات

منشورات المجمع الجزائري للغة العربية

**** تتضع أي أسماء تجارية وأسماء منتجات مذكورة في هذا الكتاب إلى علامات تجارية أو ملكية فكرية أو حماية براءة اختراع، وهي علامات تجارية أو ملكية فكرية مسجلة لأصحابها المعنيين أو وصف المنتج وما إلى ذلك...، حتى في حالة عدم وضع علامة معينة في هذا العمل، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقصد بذلك أن هذه الأسماء قد تعتبر غير مقيدة فيما يتعلق بتشريعات حماية الملكية الفكرية والعلامات التجارية، وبالتالي يمكن لأي شخص استخدامها.**

****تصميم غلاف الكتاب: يس. جعيج-ح. سعادي -المجمع الجزائري للغة العربية/2023**

****الإيداع القانوني: السادسي الثاني/ 2023.**

ISBN: 978-9931-9644-5-2

****حقوق الطبع محفوظة**

© مصطفى حركات

© منشور راسخ للمجمع الجزائري للغة العربية 2023.

06 شارع العقيد محمد بوقرة - الأبيار- الجزائر .

***** الوصف الببليوغرافي**

**مصطفى حركات
العربية بين الحضارة والحداثة / حركات مصطفى.- الجزائر،
المجمع الجزائري للغة العربية، 2023-211ص؛ 16 x 24 سم.
ISBN: 978-9931-9644-5-2**

**اللغة العربية- الحضارة العربية.
اللغة العربية-الحداثة- العربية: النهضة.
اللغات- العربية: علوم اللغة العربية.**

ديوي 400.0

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ



العربية بين الحضارة والحداثة

د. مصطفى حركات

منشورات المجمع الجزائري للغة العربية

2023

محتويات الكتاب

الصفحة	العنوان
11	المقدمة
15	1. القسم الأول: العربية واللغات الإنسانية
17	1.1. باب اللغات والإنسان
17	1. مفهوم اللغة البشرية
19	2. اللغات عبر العالم
21	3. اللغات والوظائف الاجتماعية
22	4. اللغات والكتابة
23	5. اللغات والزمن
25	6. العائلات اللغوية
27	7. اللغة والأعراق
29	8. اللغة والإثنية
31	9. اللغات والحاسوب
33	2. باب اللغة البشرية وعلومها
35	1. نشأة علوم اللغة في الغرب
38	2. اللسانيات
44	3. اللسانيات واللغة العربية
51	3. باب وظائف اللغة
53	1. مفهوم الوظيفة
56	2. دورة التخاطب
58	3. الوظائف اللغوية عند جاكسون

62	4. تعدد نظرية التخاطب
63	5. نظرية شانون في الإعلام
67	2. القسم الثاني: العربية والحضارة
69	1. باب الثقافة و الحضارة
69	1. الثقافة و مدلولاتها
74	2. الحضارة و سماتها الأساسية
81	2. باب العربية و كتابتها
83	1. الفصحى بين المنطوق و المكتوب
88	2. بنية الكتابة العربية
94	3. قضايا الإملاء العربي
103	4. قضايا القراءة و التشكيل
117	3. باب العربية و علومها
119	1. النحو و ترسيخ بنية اللغة
124	2. اللغة و المعجم
128	3. التعريف و أسسه
135	4. باب العربية و العلوم
139	1. العربية و العلوم
145	5. باب الشعر و اللغة
147	1. الشعر و الوزن
157	2. الشعر بين الفهم و الغموض
164	3. مستقبل الشعر
166	4. تدريس الشعر

169	3. القسم الثالث: العربية والنهضة
171	1. باب العربية ووسائل الإعلام
171	1. الحضارة ووسائل الإعلام
174	2. الطباعة وتطور المكتوب
177	3. الصحافة و حدائنة اللّغة
181	4. السينما واللّغة المحكية
185	5. السينما العربية بين المشرق والمغرب
188	6. المذيع و اللّغة المنطوقة
190	7. التلفاز بين السمع و الرؤية
192	8. التلفاز العربي و عصر الفضائيات
197	2. باب اللّغة وأهلها في عصر الحدائنة
199	1. عصر النهضة العربية.
200	2. دسترة العربية
203	3. العربية و تحديات العصر
207	المراجع

المقدمة

1. اللغة هي ما منح الخالق لعباده ليميزهم عن باقي المخلوقات. وهي وعاء الفكر، والوسيلة المثلى للتواصل، كما هي أداة العلوم والآداب وواجهة الحضارات. ولكل لغات العالم تاريخ يحدد أصولها ونشأتها وعلاقتها بالمكان والزمان وثقافة ناطقيها.

2. أما العربية فإنها كانت حسب المؤرخين مشتتة عبر لهجات متميزة فوُحِدَت، وكانت شفوية فكُتِبَت ثم ضُبُطَ خطها حتى أصبح شبه مثالي، وكانت مبنية على السليقة فأنشئ نحوها، وكانت ألفاظها ضمن المعاجم الذهنية للأفراد والجماعات فدونت مفرداتها في الكتب، وكانت دون رصيد علمي يُذكر فاستوعبت كل علوم العصر عبر الترجمات، وكانت لغةً إثنيةً محدودة فأصبحت لغة أجناس متعددة. واتسعت رقعة نفوذها، وامتد زمان ازدهارها حتى أصبحت لغة حضارة كبرى غدّت حضارات الغرب اليوم.

3. ويعود الفضل في هذا إلى كل العباقرة الذين خدموها من أدباء وكتاب ونحاة ولغويين وبلاغيين وفقهاء ورياضيين ومختصين في شتى العلوم. كما يعود الفضل أيضا للسياسة الثقافية الرشيدة للحكام الذين شجعوا هؤلاء المبدعين وكافئوهم حسب عملهم المصني وعبقريتهم الفذة، دون تمييز بين أجناسهم وعقائدهم. كما أنهم وفروا لهم كل وسائل البحث منشئين المخابر والمكتبات التي تضاهي أكبر مكتبات العصر الحديث.

4. وترقى اللغات مع رُقَيّ الحضارات، وتصمد عند الانحطاط، ولكنها تبقى حية في اللامعقول الجماعي وفي حروف كل من نطق بها حتى وإن حاد

خطابه عن نظامها الفصيح. ويهاجر أهلها عند الاضطهاد، فتهاجر معهم، ويلجأ الأدباء والعلماء إلى أماكن آمنة يكتبون النثر ويقولون الشعر، ويبحثون في النحو والتاريخ ويؤلفون المعاجم حتى مع غياب الحوافز المادية.

5. وعندما تستقل الأوطان وتستقر اللغة في مواطن ناطقها يرجع الحماس إلى المجتمع وتنشأ "نهضة" تحاول استدراك ركب من سبقوهم. فتمكن اللغة الكتب المطبوعة والجرائد والمذياع والتلفاز وتدرّس في المدارس الحديثة والجامعات.

6. ولكن ركب الحداثة يسير بسرعة الصواريخ والمجتمع العربي إن اكتفى بمحاكاة حضارة أصبحت عالمية تبقى لغته بفضل عدد ناطقها وجمالها، حاضرة في عصر التكنولوجيا والحاسوب. وسراها بفضل وعي أهلها ترفع تحديات جديدة.

7. هذه الرواية للغة الضاد كانت تدور بخلدي منذ سنوات، فكتبتها لا كما يكتبها المؤرخ ولا كما ينظر إليها عالم الاجتماع ولا كما يحللها الناقد الأدبي، ولكنني أردت في كل مرحلة أن أعالج قضية شائكة من قضاياها، كقضية الكتابة والقراءة والتعليم والشعر واللسانيات والحوسبة والذكاء الاصطناعي.

8. لما ألفت كتابي هذا عرضت أهم أفكاره خلال ندوة أقيمت في مقر "المجمع الجزائري للغة العربية". ففاجأني رئيسه الأستاذ "الشريف مربي" باقتراح مفاده أن المجمع هو الذي سيتكفل بإصدار هذا العمل. فقبلت شاكرًا هذا الاقتراح.

9. من عادتي أن أحرر مؤلفاتي عدة مرات قبل إعطائها الشكل النهائي. وهذه المرة، ولقصر الوقت، قررنا تقسيم الكتاب إلى جزأين: الأول عنوانه "العربية بين الحضارة والحداثة" والثاني خصصناه للرياضيات وحوسبة اللغة. واستعنت في التصحيح بالأستاذ "الطاهر لوصيف" أمين المجمع الذي قدم لي ملاحظات في صميم الموضوع. فالشكر الجزيل له وللسيد مربي وللكل باحثي المجمع الذي نراه اليوم يخطو خطوات جديدة نتمناها كلها إبداعاً وحيوية.

والله ولي التوفيق

د. مصطفى حركات

القسم الأول: العربية واللغات الإنسانية

1. باب اللغات والإنسان

1. مفهوم اللغة البشرية

2. اللغات عبر العالم

3. اللغة والوظائف الاجتماعية

4. اللغة والكتابة

5. اللغات والزمن

5. العائلات اللغوية

7. اللغة والأعراق

8. اللغة والإثنية

9. اللغات والحاسوب

1. باب اللغات والإنسان

1. مفهوم اللغة البشرية

1. بدأ الإنسان يتكلم مستعملاً نظاماً صوتياً متماسكاً سمي اللغة وذلك منذ أمد بعيد، غير أن العلماء لم يستطيعوا تحديد نشأة هذه اللغة بصفة قطعية. فكثرت النظريات حول هذه النشأة واختلفت حتى امتنع اللسانيون عن أي بحث في هذا المجال. أما علماء الأنثروبولوجيا فإنهم لاحظوا أن الشعوب التي تعيش في معزل تام عن الحداثة، تملك لغات ذات بنية متماسكة وهي في بعض الأحيان أكثر منطقية وثراء من لغات البلدان المتقدمة. وهذا يبطل آراء الذين يعتقدون أن اللغة نشأت انطلاقاً من محاكاة الطبيعة بالأصوات المنعزلة قبل الوصول إلى مستوى الكلمات المنفصلة ثم مستوى الجمل.

2. ولكن ما هي اللغة البشرية؟ إن المصطلح العربي "لغة" له اليوم معنيان: معنى عام يقابل Langage ومعنى خاص يترجم بـ Langue. أما الأول فهو يشير إلى كل نظام من الإشارات مبني على الصوت أو الحركة الجسدية أو الخط أو اللمس أو اللباس أو أي شيء آخر، قصد إيصال المعلومات.

3. أما الاستعمال الثاني فيُقصد به اللغة البشرية مثل العربية واليونانية والانجليزية والتركية واليابانية. والسؤال الذي يطرح على الجميع هو قضية تعريف اللغة البشرية وتمييزها عن باقي أنظمة التواصل. وهذا التعريف قد يكون مرتبطاً بالإنسان نفسه وقد يكون مرتبطاً بنظام التواصل نفسه.

4. أساس اللغة البشرية صوتي. وذلك أن الإنسان تكلم قبل أن يكتب. أما الكتابة التي هي أيضا وسيلة مهمة للتواصل فإنها مجرد تدوين للمنطوق.
5. الأصوات التي يؤديها الإنسان عند الكلام خاصيتها أنها لا تحمل دلالة على مستواها ووظيفتها الأساسية بناء مستوى أعلى تبرز فيه هذه الدلالة. هذه الأصوات محدودة يختلف بعضها عن البعض من ناحية المخرج والصفات.
6. الأصوات تُجمَع لتكوّن وحدات ذات معنى تسمى "الوحدات الدالة" أو للتبسيط "الكلمات" والتي عددها يحصى بالمئات. ومن الكلمات تحدد الجمل التي يكتمل على مستواها المعنى. وهي نظريا غير منتهية.
7. هذا النظام اللغوي الاقتصادي حظي به الإنسان. وأصبح ممكنا لأسباب بيولوجية ونفسية تخص جهاز النطق والدماغ.
8. باللغة البشرية يستطيع الإنسان التعبير عن أفكاره ومشاعره وإيصالها إلى الغير، وبواسطتها نشأت شتى العلوم التي أسست الحضارات.

2. اللغات عبر العالم

1. يحتوي عالمنا على لغات متميزة من ناحيتي البنية والاستعمال. وهذا الاختلاف أدى العلماء إلى إحصائها. فوجدوا عددها يفوق اليوم الـ "7000" لغة موزعة عبر القارات الخمس.

2. وكان الإحصاء في القديم يفصل بين اللغات التي عددها 2000 واللهجات التي تقارب الـ 5000.

3. ولكن الباحثين رفضوا الفصل بين اللغة واللهجة وذلك أن اللهجات لا تختلف من ناحية منطقية المبنى أو أهمية المعجم عن اللغات. علماء "اللسانيات الاجتماعية" رأوا في كلمة "لهجة" نوعا من الاحتقار لها فاستعملوا مصطلح "النوع اللغوي" للدلالة على أي نظام لغوي بشري. ولكن هذه العقدة زالت مع الوقت وأصبحت مفردة "لغة" تطلق على كل من اللغة واللهجة.

4. وللغة علاقة بالمكان فهي لغة أقوام استقروا غالبا في ناحية من نواحي الأرض. وعندما سافروا، سافرت لغتهم معهم.

5. تُوزع لغات العالم اليوم على القارات الخمس حسب الأرقام الآتية:

آسيا: 2296 لغة.

إفريقيا: 2139 لغة

بلدان المحيط: 1313 لغة

أمريكا الشمالية والجنوبية: 1062 لغة

أوروبا: 287 لغة.

6. ولكن هذه الأرقام لا تساير دوما عدد السكان. فقلة عدد اللغات في أوروبا راجع لسياساتها التي غلّبت اللغات الوطنية على اللهجات المحلية

حتى انقرض بعضها. أما إفريقيا التي عرفت الاستعمار فإن لهجاتها بقيت على حالها مسيطرة "إثنية" السكان، تاركة لغة الإدارة والاقتصاد والتعليم للغة المحتل، وذلك حتى يومنا هذا.

7. من ناحية عدد الناطقين، رتب وحددت قائمة اللغات العشر الأوائل

كما يلي:

المندرين أي اللغة الصينية الرسمية: 955 مليون ناطقٍ.

العربية 450 مليون.

الإسبانية: 405 مليون، يقطنون إسبانيا وجنوب أمريكا.

الإنجليزية: 360 مليون، يقطنون أمريكا وانجلترا وبعض بلدان الكومنولث.

الهندية 310 مليون.

البرتغالية: 215 مليون، يقطنون البرتغال والبرازيل.

8. وتختلف هذه الأرقام حسب الجهات التي تحصي. فقد نرى أحيانا

مَنْ يُدخل في الإحصاء اللهجات العربية فيقلل بذلك من شأن الفصحى. كما

نرى بعض مناصري الفرنكوفونية يضيفون للناطقين الفعليين للفرنسية،

الموجودين في فرنسا وسويسرا وبلجيكا وكندا، سكان بلدان إفريقيا الذين

يستعملونها في التعليم والإدارة. مما يرفع من شأن هذه اللغة وينقلها من

الرتبة العاشرة إلى الرتبة السادسة.

3. اللغة والوظائف الاجتماعية

1. تكتسي اللغات، إلى جانب عدد ناطقيها، أهمية أخرى متعلقة بالوظائف التي تؤديها. فبعض اللغات لا تُستعمل إلا للتواصل الصوتي في البيت أو في حيز جغرافي محصور، وهو حال 98 بالمائة من اللغات.

2. إلى جانب التواصل، تؤدي اللغة العديد من الوظائف الاجتماعية، فقد تكون وطنية على مستوى الدستور، وقد تستعمل في الشعائر الدينية، وفي التعليم، والدبلوماسية، والاقتصاد، والبحث العلمي، والصحافة، والتلفاز، والانترنت. أضف إلى هذا أن اللغة قد تكون وعاء لأدب غزير، ووسيلة للترجمة. وكلما حققت اللغة وظيفة من هذه الوظائف كلما ازداد إشعاعها وضُمنت ديمومتها.

3. من بين مجموع لغات العالم الـ 7000 لا توجد إلا 250 لغة تنجز أكثر من وظيفيتين مما ذكرنا. أما التي تنجز معظمها فهي لا تفوق الستين. وتتصدر الجميع الانجليزية التي تتجه اليوم نحو العالمية.

4. اللغة والكتابة

1. من أهم الوظائف التي تؤديها اللغة نجد التواصل بالمكتوب. لأن المكتوب يثبت الكلام ويعطيه بعدا جغرافيا وزمنيا. وهو الوسيلة الوحيدة للدراسات العلمية.

للكتاب تاريخ طويل يرجع إلى أكثر من 5000 سنة قبل الميلاد. ولم يكن الخط في البداية مستقلا عن الرسم والتمثيل، مرتبطا ارتباطا وثيقا ببنية اللغة. ثم تطور وأخذ صبغة مجردة تحاكي هيكل المنطوق. وتختلف الكتابات من عدة جوانب، ولكنه بالإمكان تصنيفها حسب نمطين كبيرين هما: الكتابة الصوتية والكتابة الدلالية.

2. الكتابة الصوتية هي التي تدون أصوات لغة ما، بل قل "فونيماتها". وقد يعتبر بعض الباحثين أن هذا النوع من الكتابة يكون أول نظرية ضمنية للغة. وتنقسم الكتابة الصوتية إلى أنواع عدة: فمنها ما هو مركز على الصوامت أو الحروف، ومنها ما يساوي بين الحروف والحركات. ومن الكتابة الصوتية ما هو مبني على المقاطع بدلا من الحروف. ومن خصائص الكتابات الصوتية التي بلغت نضجها أنها تعبر أيضا على الكلمات بواسطة بياض يترك بين سلسلة من الرموز.

3. أما الصنف الثاني من الكتابات فهو مبني على الدلالة، وهو يدون مباشرة الكلمات بل قل المرفيمات أي أصغر الوحدات الدالة. وهذا النوع من الكتابة يتطلب أبجدية ضخمة يصعب استيعابها على الأجانب. وجاء هذا النوع من الكتابة ليؤدي وظيفة اجتماعية وهي توحيد إثنيات مختلفة اللهجات تعيش في بلد واحد.

4. عدد الكتابات في العالم اليوم يقارب الخمسين وهي موزعة على بضع لغات تستعملها فعلا. وأهمها من ناحية الشيوخ:
- أ. الكتابة اللاتينية المستعملة في معظم البلدان الغربية باستثناء اليونان.
- ب. الكتابة الصينية المستعملة في الصين والعديد من بلدان الشرق الأقصى.
- ج. الكتابة الهندية وما شابهها وهي مستعملة من طرف سكان الهند والبنغلاديش.
- د. الكتابة العربية المستعملة في معظم البلدان الإسلامية.

5. اللغات والزمن

1. تصنف اللغات من ناحية الزمن. ونذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، أن اللغة السومرية تركت لنا آثارا تعود إلى تاريخ قدر بـ : 3500 ق.م. وتشاطر في القدم هذه اللغة كل من الصينية واليونانية واللاتينية. أما العربية فهي قديمة النشأة كما دلت على ذلك الحفريات، ولكنها لم توحد ولم تقنن بواسطة الكتابة والنحو والمعجم إلا بعد نزول القرآن بعدة سنوات. فهي من هذه الناحية لغة حديثة، حية.
2. تنشأ بعض اللغات بواسطة السياسات اللغوية. فهذا ما حدث للغات العربية الحديثة عندما انفصلت عن اللاتينية.
- اللغة الفرنسية أسست بقرار صدر سنة 1539 من طرف الملك "فرنسوا الأول" الذي اعتمدها لغة للإدارة والقانون، رغم أنها كانت لغة أقلية. وسنة

1635 أسست الأكاديمية الفرنسية من طرف "الكاردينال ريشوليا" بغية ضبطها وتقعيدها. رغم هذا فإنها مرت عبر ثلاث مراحل قبل الاستقرار وهي: مرحلة الفرنسية القديمة ثم المتوسطة ثم الحديثة.

أما الإيطالية، فالمعروف عنها أن الأدباء مثل "دانتي" هم الذين ساهموا في نشأتها. كما ساهم في ترسيخها تحديد مصطلحات عامياتها بواسطة معجم متعدد اللغات صدر سنة 1509، ثم أكمل العمل بعد نشأة الأكاديمية الإيطالية سنة 1612. وتأخر ضبط الإيطالية لعدم وحدة البلاد وتعدد اللهجات. ونستطيع القول إن وحدة فرنسا السياسية هي التي وحدت لغتها، أما الإيطالية فتوحيد اللغة هو الذي وحد البلاد.

الإنجليزية الحديثة نشأت في الفترة ما بين 1650 و 1700. وخلال الحرب العالمية الثانية حددت لغة إنجليزية مبسطة تحتوي على 850 كلمة فقط، وكان الهدف منها تسهيل التواصل مع المستعمرات والاتجاه نحو عولمتها.

الألمانية كانت مقسمة بين لغة الشمال ولغة الجنوب. ووجهها المعياري كان خلال القرن التاسع عشر حكرا على المكتوب. ومع ظهور المعاجم وتحسين الإملاء برزت لغة ألمانية حديثة موحدة، رغم وجود تنوعات خصت سويرا وبعض البلدان المجاورة.

3. اللغات في تطور مستمر، وهذا التطور يشمل البنية والمعجم. أما البنية فتغييرها عندما تستقر اللغة بواسطة التعليم والتثقيف بطيء جدا. بينما نرى المعجم يتغير بصفة سريعة خصوصا في عصر التكنولوجيا والحاسوب.

أما تقبّل الألفاظ الجديدة فهم من صلاحيات هيئات رسمية كالأكاديميات، أو شبه رسمية كدور النشر المتخصصة في صنع المعاجم. ولكن الشارع لا ينتظر أعمال الباحثين البطيئة فهو يضع لكل مدلول لفظا يدل عليه، وهذا ما يوسع الفجوة بين اللغات الرسمية ولغات الشارع.

6. العائلات اللغوية

1. تصنف اللغات حسب تقاربها البُنوي إلى عائلات. والباحثون الذين حددوا هذه العائلات هم اللغويون المهتمون باللسانيات التاريخية مثل الألماني فرانتس بوب Frantz Bopp الذي أرجع اللغات الغربية إلى "السنسكريتية" بعد دراسة خاصة بتصريف الأفعال وذلك خلال سنة 1816. وطور اللغويات التاريخية غريم Grimm مع قانونه الخاص بالصوتيات وتحولاتها الزمنية. ثم كثرت الدراسات في هذا المجال بحيث أن معظم اللغات واللهجات عبر العالم درست حسب العلاقات التي تربط بينها. هذه العائلات عددها يقارب الـ 147 عائلة انقرضت منها 12 عائلة. ويمكن تصنيف العائلات حسب عدد فروعها وعدد الناطقين بها. تنصدر كل هذه العائلات: العائلة الهندو-أوربية المكونة من 437 فرعا و2.91 مليار ناطق.

2. تصنف اللغات أيضا حسب بنيتها. فعلى المستوى الصوتي يمكن التمييز بين اللغات التي لها عدد معين من المصوتات أو التي تبني مقاطعها على الطول والقصر أو النبر وموقعه من الكلمة.

أما على المستوى الصرفي فاللغات قد تكون عازلة أو إصاقية أو تصنيفية. وكل لغة تملك سمة من هذه السمات، ولكن العبرة تكون بتغليب إحداها على الأخرى.

على المستوى التركيبي تلعب رتبة الاسم والفعل وتوابعه دورا مهما. فبعض اللغات تنتمي إلى الصنف: فعل فاعل مفعول VSO وبعضها إلى الصنف، فاعل فعل مفعول SVO.

ومن اللغات ما امتازت بالإعراب ومنها ما جهلته. ومنها ما عرفت المشنى ومنها ما أدمجته في الجمع.

ونرى من خلال هذا أن الأصناف التركيبية للغات عدة، وأن تطابق لغتين في هذا المجال نادر جدا.

3. والجدير بالذكر أن التصنيف التاريخي لا يتطابق دوما مع التصنيف البنوي، فاللغة اليونانية مثلا لها سمات مشتركة مع العربية في مجالات الفونولوجيا وعلم التراكيب والعروض مع أن الأولى تنتمي إلى اللغات الهندية- الأوربية والثانية إلى العائلة السامية.

أضف إلى هذا استيراد الكلمات من لغة إلى أخرى عند تجاور الحضارات مما يخفي التشابه الموجود بين الكلمات ذات الأصل الواحد.

كل هذا جعل اللسانيين لا يثقون كثيرا في الانتماء العائلي للغات، ويفضلون الاعتماد على التشابهات التي يلاحظونها آتيا.

7. اللغة والأعراق

1. إذا تركنا الآن اللغة ومكان نفوذها وبنيتها جانبا، واهتمنا بالناطقين أنفسهم وما يجمعهم، فإن أول شيء يتبادر إلى الأذهان هو عرق هؤلاء الناطقين أو إن شئت جنسهم. وربط اللغة بالعرق هو أمر شائع عند من يريد تبرير وجود لغة هي في صراع مع غيرها أو يرغب في تغليب لغة على أخرى. وعلم الأجناس ليس دائما مضبوطا فهو مبني على لون البشرة وخصائص جسدية كشكل العيون، ونعومة الشعر وغلظ الشفتين.

2. تمييز البشر بعضهم عن بعض حسب شكلهم وأصلهم موجود في كل الثقافات، ولكن تقنين هذا التمييز وإعطائه صيغة نظرية لم ينشأ إلا في القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا.

أرتور غوبينو Arthur Gobineau الفرنسي ألف بين تاريخي 1851 و1851 سلسلة من الكتب مبنية على أساس تفاوت الأجناس في المجال الحضاري، عنوانها: *Inégalités des races humaines* ، وفيها حدد ثلاثة أجناس كبرى: البيض والسود والصُّفْر.

وانتشرت فكرة تفوق أجناس على أخرى. تفوق يمثله قول "دافيد هيوم" David Hume " في مقال درس فيه الشخصية الوطنية:

" إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه لا توجد أمة متحضرة غير أمة البيض ولا يوجد أي فرد متطور عقلا وسلوكا إلا من كان من البيض".

وكل هذا كان له غرض تبرير الاستيطان في أمريكا والاستعمار في إفريقيا وآسيا وفرض الثقافة الغربية ولغتها على شعوب اعتبرت متخلفة.

3. وتغيرت وجهة الباحثين رويدا رويدا مع بعض علماء الانثروبولوجيا مثل "كلود ليفي شتروس" Claude-Lévy Strauss الذي بين أن "الأقوام البشرية لا تختلف إلا من ناحية الثقافة"

وسادت فكرة تساوي الأجناس، ولكن أعمال التصنيف بقيت متداولة، فرى مثلا كلود فالوا Claude Valois يحدد في كتابه الأجناس البشرية Les Races du Monde الأصناف الآتية: السود الأفارقة، والصفرة الآسيويين، والسود الأستراليين، والبيض الأوربيين.

4. تطورت في نهاية القرن العشرين البيولوجيا وظهر علم الجينات الذي يربط الأفراد بأصولهم. واعتقد الباحثون آنذاك أنهم سيجدون جينات خاصة بالسود وأخرى بالصفرة وأخرى بالبيض ولكن ظنهم خاب، وتبين لهم أن توزيع الجينات على المجموعات البشرية لا يساير توقعاتهم وأن الاختلاف بين الأجناس من هذه الوجهة لا يملك دلالة تذكر.

5. ولو بحثنا عن علاقة اللغة بهذه الأجناس المزعومة، لرأيناها لا تعطينا نتيجة. وفي هذا الشأن نذكر قول اللساني - الأنثروبولوجي "إدوارد سايبير": "إن خريطة اللغات وخريطة الأجناس لا تتطابق، فالزنجي في حي "هرليم" مثلا لا يعرف من لغة للتواصل والتعبير عن أفكاره ومشاعره إلا الانجليزية فله إذن الحق فيها مثل ملكة إنجلترا".

8. اللّغة والإثنية

1. أوصلت منظمة "اليونسكو" استبعاد كلمة العرق وتعويضها بمفردة "الإثنية".

والإثنية مصطلح استعمله العلماء الذين درسوا الشعوب البعيدة عن الثقافة التكنولوجية الحديثة. وتعريفه متعلق بما يلي:

المجموعة "الإثنية" Une *éthnie* هي كل فصيلة من البشر تجمعهم خصلتان:

أ. امتلاكهم ثقافة مشتركة قوامها بعضٌ من هذه العناصر: الدين واللغة والعادات.

ب. اشتراكهم في الماضي ورغبتهم في تمديده.

2. مفهوم "المجموعة الإثنية" يختلف عن مفهوم "المجموعة الوطنية".
والمقصود بالوطن nation هو الرقعة الأرضية التي يسكنها أناس لهم نفس الحقوق ونفس الواجبات. وهو يساير مصطلح "البلاد" pays وأحيانا الدولة. والدول لها عواصم وحدود معترف بها وحكومة تسييرها وجيش يحميها.

أما الوطنية le nationalisme فهي الشعور الانتمائي الذي يتمتع به سكان بلد ما. وللوطنية إيجابيات وسلبيات، فإيجابياتها أنها مكنت البلدان المستعمرة من استرجاع حرياتها، وسلبياتها أنها كانت السبب في نزاعات وحروب أدت إلى تقسيم بلدان مستقرة.

3. بلدان العالم لم تنشأ جراء توزيع الأرض على إثنيات معينة أو لغات متداولة، بل رُسمت حدودها في غالب الأحيان حسب المناخ والظروف التاريخية.

ولو درسنا اليوم علاقة الأوطان بلغاتهم لما وجدنا بلدا واحدا يملك لغة واحدة.

ففرنسا مثلا لها ست لغات جهوية: لغة أوكسيتانيا ولغة الباسك ولغة البرتون ولغة جزيرة كورسيكا ولغة منطقة الألزاس.

أما بريطانيا العظمى فإنها تملك، إلى جانب الإنجليزية الرسمية، أربع لغات متداولة أشهرها لغة "إيكوسيا" و لغة "إرلندا".

وإسبانيا لها خمس لغات منطوقة أشهرها لغة "الباسك" و"كاتالانيا". وفي كندا وبلجيكا وسويسرا تتنافس الفرنسية مع لغات أخرى مما أثر على النظام السياسي لهذه الدول.

4. ظهر مؤخرا في البلدان المتقدمة اهتمام متزايد بإثنيات المهاجرين. وهذه الإثنيات تكوّن جاليات جاءت من بلدان متعددة، بعضها من المستعمرات القديمة وبعضها وفد حديثا بعد الحروب التي نشبت في العالم الإسلامي وإفريقيا وآسيا. ففي فرنسا نجد جاليات من أصل مغاربي أو إفريقي أو صيني أو حتى أوربي كالبرتغاليين. وفي إنجلترا تعد الجالية الهندية من أكبر المجموعات الإثنية، وفي ألمانيا يتصدر الأتراك بقية الجاليات.

معظم هؤلاء كانوا في البداية يعيشون في معزل عن السكان الأصليين، ولكن أبناءهم من الجيل الثاني أو الثالث تأقلموا مع بعض الثقافة المحلية، وإن نسي، مع الأسف، الكثير منهم لغته فإنه لم يتخل عن عقيدته وعاداته.

9. اللغات والحاسوب

1. بعد نشأة الحواسيب، اهتم الباحثون في كل بلد بإدراج لغاتهم في عالمه، فخصصت لكتابات اللغة برامج وصنفت أبجدياتها حسب أنظمة معروفة. ووجدت كل لغة السبيل لاستعمالها مهما كانت درجة صعوبة كتابتها. فالعربية استفادت من اختزال لوحة المفاتيح إذ أصبح الحاسوب قادراً على تمييز شكل الحرف من خلال موقعه في الكلمة.

ولما جاءت محركات البحث التي أحدثت ثورة في مجال إيصال المعلومات كثرت المواقع الوطنية، ثم تعددت اللغات واللهجات التي تستعمل الحاسوب مع نشأة شركات التواصل الاجتماعي مثل فايسبوك وتويتتر. واستمر الزحف التكنولوجي حتى شمل الهواتف الذكية التي يُستعمل فيها الصوت والصورة والكتابة. والتطور مستمر مع بروز الذكاء الاصطناعي الذي يكون نوعاً من التحدي للغات.

2. تتفاوت اللغات من حيث استعمالها في الإنترنت. والإحصائيات الأخيرة بينت لنا أن أربع لغات موجودة في الطبيعة من حيث الاستعمال هي: الإنجليزية والصينية والإسبانية والعربية.

أما نسب الاستعمال فقد جاءت كما يلي:

الانجليزية مستعملة من طرف أكثر من مليار فرد مع نسبة تفوق الـ 25 %

الصينية مستعملة من طرف 804 مليون فرد مع نسبة تساوي 20 %

الإسبانية مستعملة من طرف 358 مليون فرد مع نسبة تساوي 8 %

العربية مستعملة من طرف 228 مليون فرد بنسبة 4.8 %

وتأتي بعد هذا بالترتيب: البرتغالية والإندونيسية واليابانية والروسية والفرنسية والألمانية بنسب ضعيفة.

3. هذه الأرقام تعكس عدد ناطقي اللغات والتنوع الثقافي الذي يتمتعون به. وعبارة التنوع الثقافي نقصد بها الثقافة بمعناها العام الذي يخص التكنولوجيا والعلوم والأبعاد العقائدية والأدبية.

وهي تبين لنا تقدم الإنجليزية على الصينية، وغياب لغات الهند وما جاورها، وتفقه لغات عريقة كالفرنسية والألمانية. وهذا راجع لحاجيات البشر، كأفراد وجماعات، لعولمة لغوية يفرضها الاقتصاد والتكنولوجيا والعلم. فأصبحت هكذا الانجليزية "إسبرنتو" القرن، يتواصل بواسطتها الأفراد على اختلاف أجناسهم وأوطانهم، والهيئات الاقتصادية في كل بلد، والباحثون في جل المجالات.

2. باب اللغة البشرية وعلومها

1. نشأة علوم اللغة في الغرب

2. اللسانيات

3. اللسانيات واللغة العربية

2. باب اللغة البشرية وعلومها

1. نشأة علوم اللغة في الغرب

1. للناطقين بأي لسان كان، نظام باطني خفي يتبعونه ولا يحدون عنه. فهو ضروري للتواصل ولا تتقبل الجماعة التي صنعتها أي انزياح أو خروج عنه. والنظام الباطني سابق لأي نظرية لغوية صريحة يضعها العلماء وذلك في شتى المجالات التي تنتمي إلى اللسان: ففصحاء العربية لم ينتظروا النحويين حتى يتعلموا رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه، وشعراء الجاهلية لم يحتاجوا إلى الخليل لاستعمال الأوزان التي وصلت إلينا.

2. من خصائص الإنسان القدرة على التفكير في لغته، واتخاذها موضوع دراسة، ولذا فإن نشأة النحو كانت أمرا متوقعا في المجتمعات التي عرفت رقا حضاريا عاليا. ولعل أول النظريات اللغوية الخفية كانت الكتابة التي حددت الأصوات الوظيفية والكلمات وبعض التراكيب.

3. الدراسات النحوية القديمة التي لدينا عنها فكرة واضحة، هي المتعلقة بعلماء اليونان. فالتفكير في اللغة هناك بدأ في إطار ثقافي عام يُبحث فيه عن أصول اللغة وطبيعة نشأتها وعلاقتها بالأفكار والعالم.

أرجعت في البداية كل الدلالات إلى الكلمة والأصوات التي تكونها. ثم دُرس تصنيف الكلمات وهو ما نسميه في علم العربية بأقسام الكلام. فالتمييز بين الاسم والفعل يمكن إرجاعه إلى أفلاطون " 429-347 قبل الميلاد" الذي ربط كلا منهما بالمسند والمسند إليه. أما أرسطو "384-322

ق.م" فإنه حافظ على التمييز بين الاسم والفعل وأضاف إلى الصنفين قسما ثالثا يحتوي على الكلمات التي لا تنتمي إلى الصنفين. كما أن له الفضل في التطرق لعلم الصرف رابطا الفعل بالزمن.

4. أما البحوث المتقدمة فإنها ارتبطت بمدرسة الإسكندرية حيث لعبت مكتبتها في القرن الثالث قبل الميلاد دورا أساسيا في المجالين الأدبي واللغوي. اهتم النحاة عندهم بدراسة المكتوب من الشعر القديم الذي كان يثير إعجابهم وأهملوا تماما المنطوق ولغة حاضريهم. فكان للنحو الذي أنشئ هدفان: شرح اللغة النمطية وحمايتها من الفساد.

ثم اكتشف القياس من طرف مدرسة الإسكندرية وُحددت أجزاء للكلام أخرى. ثم ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد أول كتاب في علم اللغة صاحبه .Denys de Thrace

اتسمت أعمال النحاة القدماء آنذاك بصيغة معيارية واضحة، حيث كانت كل دراسة مقسمة إلى ثلاثة أبواب أولها مخصص لفن الكلام والكتابة وفهم الشعر، والثاني لدراسة النحو والثالث للأسلوب وسلامة اللغة.

5. وبقي هذا النحو المعياري الذي كان يجهل علم التراكيب على حاله مدة أربعة قرون حتى برز نحو حقيقي أنشأه "أبولونيوس دي سكول" Appolonios Dyscole الملقب بأبولونيوس النحوي. وذلك في القرن الثاني المسيحي. هذا المنظر أُلّف أكثر من ثلاثين كتابا في النحو والصرف والدلالة والإملاء والعروض وأقسام الكلام التي صنفت إلى ستة عناصر. وترجمت مؤلفاته إلى الفرنسية والأرمنية وقيل إلى السوربية القديمة حيث يزعم البعض أن علماء العرب اطلعوا عليها.

6. استقر النحو اليوناني وأصبح مرجعا للغات القديمة التي كانت أساس العلوم والثقافة في الغرب. ثم خلال النهضة الغربية دسترت لهجات كل بلد وأصبحت لغاتٍ وطنيةً تستعمل في الإدارة والتعليم والأدب. وظهرت الحاجة لنحو يثبّت هذه اللغات.

هذا النحو كان متأثرا بأعمال القدماء، يقلد منهجيتهم ويأخذ موضوع دراسته من المكتوب. وقد عرف صعوبات في التأسيس، نتيجة تغير اللغة نف وامتزجت الدراسات النحوية بالدراسات "الفيلولوجية" التي موضوعها معالجة النصوص وتوثيقها ونقدها مع استعمال النحو كأداة للتقويم والاستدلال.

وتميز عن غيره من الدراسات اللغوية نحو "بور رويال" Port-Royal الذي أسس في القرن السابع عشر بفرنسا والذي اعتبر اللغات كلها تابعة للمنطق والاستدلال.

7. النحو المقارن نشأ مع الإنجليزي "وليام جونس" الذي لاحظ سنة 1786 الشبه الكبير بين السنسكريتية واليونانية القديمة. أما الألماني "فريدريك فون شليغرل" Friederich von Schlegel فإنه استعمل التحليل الصرفي لإيجاد العلاقات بين اللغات. وهو الذي اخترع عبارة "النحو المقارن".

وفي الوقت نفسه أنشأ "جاكوب جريم" Jacob Grimm القانون الصوتي الذي يحمل اسمه لشرح الاختلافات الصامتية لتغيرات اللغة الألمانية. أما "فرانتس بوب" فإنه حدد موضوع الدراسات اللغوية المقارنة معتبرا اللغة كائنا حيا ينشأ ويتغير ويندثر. وكتابه الصادر سنة 1857 تحت عنوان "النحو المقارن للغات الهندو أوروبية" ترجم إلى عدة لغات. دون أن ننسى أن

الدراسات المقارنة انتقلت إلى اللسانيين أمثال أنتوان مبي Antoine Meillet الذي ألف سنة 1903 كتابا عنوانه "مدخل إلى الدراسة المقارنة للغات الهندو أوروبية".

2. اللسانيات

1. الظروف التي أدت إلى نشأة اللسانيات راجعة في رأينا إلى تغيرات خصت اللغات والسياسات التي سيرتها:

أ. انفصال اللهجات الأوربية عن اللغات المكتوبة ودسترة هذه اللهجات عززت عند اللسانيين فكرة وصف اللغة المنطوقة.

ب. الاستعمال اليومي للغة أدى إلى التشبث بدراسة هذا الاستعمال وحده.

ج. الدراسات المقارنة أظهرت العلاقات التي تربط بين اللغات، ووجود مجالات تشترك فيها. مما قاد الجميع إلى عدم ربط اللسانيات بلغة واحدة والبحث عن قوانين عامة تطبق على كل الألسن.

هذه الدراسات المقارنة أبرزت ضرورة الفصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الآنية.

2. كل هذا يرينا أن اللسانيات ليست علما جاء من العدم مستغنيا عن النحو القديم. وهذا واضح من خلال كل النصوص اللسانية التي تحتوي على العديد من المصطلحات التقليدية مثل المسند والمسند إليه، والاسم والفعل

والنعت والضمير وأدوات التعريف، والفاعل والمفعول به، واسم الزمان والمكان.

3. من ناحية المبدأ حملت اللسانيات راية العلمية وشاع تعريفها الآتي:
"اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة".

هذا التعريف يتطلب منا تحديد مكوناته.

أ. اللغة هنا هي ترجمة للمصطلح الفرنسي langage ويقصد به اللغة البشرية أو نظم تواصل الأخرى.

والمقصود بالدراسة العلمية في نظرهم شيان: الابتعاد عن المعيارية والتزام الموضوعية.

والمعيارية حسبهم هي جعل النحو أداة لاستعمال اللغة كما يجب أن تكون لا كما هي في الواقع. ولكن المعيارية في رأينا لا تستطيع أن تكون دوماً غائبة لأنها جزء من النظام. فعلى سبيل المثال نلاحظ اليوم في الفرنسية غياب العديد من أزمنة الأفعال عند العوام وبقائها عند المثقفين. فهل إدماج لغة المثقفين في النحو من المعيارية؟ وهل الاكتفاء بما شاع يصف اللغة كلها؟

ب. أما عن الموضوعية فهي مرتبطة باللساني نفسه. فهو يتكلم عن لغة ما، بواسطة لغته، وقد يعرف اللغة المدروسة أو لا يعرفها وقد يكون له ميل لها أو نفور، فتراه يُسقط ما يعرف من لغته وثقافته على اللغة التي يدرسها، ويقترح حلولاً تخص كتابتها وإملاءها ونحوها وعلاقة منطوقها بمكتوبها، وهو من وراء برجه العاجي لا يدرك أن هذه القضايا تخص الناطقين أنفسهم.

ج. ومن جهة أخرى، فهل الدراسات العربية القديمة لا ينطبق عليها التعريف السابق؟ وهل الخليل وسيبويه وابن منظور ليسوا لسانيين؟ لقد نعتهم الغربيون بالتحويين فقط مع أنهم نهجوا المنهج نفسه. في رأيي إنهم لسانيون بآتمّ معنى الكلمة حتى وإن كانت بعض أعمالهم في حاجة إلى الاستدراك والتعميم.

د. أما النعت "علمي" فهو يجعلنا نتساءل عن طبيعة هذا العلم الذي هو اللسانيات؟ هل هو علم دقيق أم علم تجريبي أم علم وصفي؟ فإن كان يقع بين كل هذا، فما هي درجة التجريد فيه؟

4. من بين الأسس التي بنيت عليها النظرية اللسانية، التمييز بين اللغة التي هي جماعية والكلام الذي هو فردي. فالكلام هو كل ما يتلفظ به الفرد كقولك "صباح الخير" لمن يلتقي بك عند بداية النهار، وقد يكون مكتوبا بلغة بسيطة كمقالة في الصحافة وقد يكون راقي التعبير آخذا شكل قصيدة كمعلقة من المعلقات.

والمقصود بالنظام ليس نظام المكتوب المدوّن في كتب القواعد من طرف المنظرين. وإنما هذا النظام الضمني الذي على المنظر أن يحاكيه. وهنا يطرح علينا السؤال الآتي: هل اللسانيات تدرس اللغة أم أنها تدرس النظام الباطني المتفق عليه؟ هذا النظام الداخلي لا علم لنا به وإنما الذي يوضع أمام أعين الباحث هو الكلام نصوصا مكتوبة كانت أو خطابا منطوقا.

5. اللغة لمن لا يعرفها تبدو غامضة لسامعها، غريبة في نطقها ومفرداتها مما جعل بعض اللسانيين يعرفونها كشفرة.

والشفرة أي "الكود" أو "القانون" هو نظام من الرموز له نص "أ" مشفر لا يظهر معناه ونص "ب" جلي عند من يملك قانون تلك الشفرة. والتشفير بالنسبة للغة هو دائما نسبي فهناك فرق بين ما نقوله أو ننوي قوله وما يفهمه السامع، وهناك ما مفرداته راقية أو خاصة لا تظهر جلية لكل فرد. فلغة الاقتصاد وعلم الاجتماع والإعلام الآلي تبدو وكأنها مشفرة بالنسبة لمن لا ينتمي لأهل الاختصاص.

6. اختلف علماء اللغة القدماء في مجال علاقة الشكل بالمعنى. ولكن اللسانيين بتوا في القضية وبرهانهم جاء من تحديد مفهوم الدليل. والدليل اللغوي هو الثنائية المكونة من دال وهو الشكل، ومدلول هو المعنى. والبعض يسميه عندنا الرمز أو الإشارة.

عندما يكون الشكل متعلقا بالصوت فإننا نستعمل عبارة "الصورة الصوتية" والمدلول "الصورة الذهنية".

لماذا الصورة الذهنية؟ لأنك لما تتكلم عن السحاب فإنك لا تتكلم عن سحابة معينة، ولما تتكلم عن الطاولة فإنك لا تقصد حتما طاولة بعينها. وللمختصين مثل "بنفنيست" كلام في حضور أو غياب العنصر المادي. ويستثنى من الدليل ما لم يكن فيه نية التواصل. فعندما نقول:

" الغيوم الملبدة تشير إلى حدوث عاصفة"

فالغيم ليست له نية في التواصل ولا يمكن اعتباره دليلا.

ومن خصائص الدليل اللغوي أنه "اعتباطي".

والاعتباطية تعني عدم وجود علاقة بين الصورة الصوتية والمعنى. ويستدل على هذا بمقارنة كلمة مثل "فرس" في العربية ومثيلاتها في اللغات الأخرى التي تحتوي على أصوات مخالفة تماما.

ويمكن، إذا وسعنا نطاق اللغة، أن ندرجها في علم واسع هو علم الرموز أو "السيمائية". وهذا العلم كتب فيه الكثير وتخصص فيه بعض من الباحثين مثل "رولان بارت". ولكن معظم اللسانيين لا يوافقون على إدراج اللغات الطبيعية في إطار السيمائية، وذلك لخصائص اللغة وثنائها.

كما علينا أن نلاحظ أن الصورة الذهنية أمر غامض بالنسبة للدارسين. فإن كانت هذه الصورة شبه واضحة بالنسبة لأسماء متعلقة بالماديات كالشجر والحجر والسماء والغيوم والطيور والخيل والجمال، فما هي الصور الذهنية للصدقة والفخر والعزة والعنف؟ وما هي الصور الذهنية للحروف والضمائر وأسماء الإشارة؟

7. من الواضح أن اللغة تخص الجماعات والأفراد، ومن هذا المنطلق فإن اللسانيات أنجبت علوما موازية كعلم الاجتماع اللغوي وعلم النفس اللغوي. وكونها مبنية على التواصل والتعبير فإنها أدت إلى توسيع مجالها إلى علوم موازية أخرى.

8. واللغة مبنية حسب مستويات. ودراستها موزعة على هذه المستويات. فالمستوى الصوتي أنجب الفونولوجيا التي تخصص فيها الكثير مثل تروبيستكوي وجاكسون وساير وبلومفيلد.

وتخصص آخرون في دراسة الصرف والمعجم وعلم التراكيب وعلم المعاني.

وهذه التخصصات يعرفها النحو القديم مما يدل مرة أخرى على ارتباط اللسانيات بالعلوم اللغوية التي سبقتها.

وقد نجحت اللسانيات الحديثة في مجال الصوتيات نجاحا بينا وأتت بمفاهيم عالمية كالفونيم، والصامت، والصائت، والمقطع اللغوي، والنغم والتنغيم. وهي مفاهيم لا أحد يستطيع نكرانها.

وفي المجال الصرفي جاءتنا بمفهوم "المرفيم" أو الوحدة الدالة الصغرى وفصلتها عن مفهوم الكلمة. وحددت مفهوم التقابل الذي طبق في المجال الصوتي. ولكن النجاح هنا كان نسبيا. ولا يزال الصرف في حاجة إلى تطوير.

أما علم التراكيب فإنه لم يعرف إلا نجاحا نسبيا. واختلفت فيه المدارس، ولم تستطع إحداها التغلب على الباقي، بحيث يمكن القول إن هذا العلم لم يبلغ اليوم نضجه. وهذا واضح من خلال مجالين:

أ. في مجال التعليم لا نجد تغييرا يذكر بالنسبة للبرامج التقليدية الغربية. بعض التغييرات المجهرية أُحدثت على هذه البرامج ولكن جل القواعد الواردة فيها بقيت على حالها. ولا يعود هذا إلى تكوين المعلمين والأساتذة وحده ولكنه راجع أيضا للنظرية اللسانية في مجال علم التركيب.

ب. في ميدان الإعلام الآلي فإننا نرى أن تحليل اللغة بواسطة الآلة لم يستفد كثيرا من نحو اللسانيين المحدثين. وبقي الإعلاميون يطبقون النحو التقليدي في برامجهم.

3. اللسانيات واللغة العربية

1. بإمكاننا أن نطرح السؤال على مستويين: مستوى المادة وهي اللغة العربية، ومستوى الباحث. والقضية يمكن تلخيصها عبر هذه الأسئلة:
هل توجد لسانيات عربية؟ وما هي هذه اللسانيات؟
هل يوجد لسانيون عرب؟ ومن هم؟

2. من الواضح أنه لا يُعدّ كل من كتب كتابا أو ترجم مؤلفا لسانيا، والكل يعلم أن تعليمنا لهذه المادة صار من مجال الثقافة العامة حيث يُكتفى فيه بذكر المدارس والعلماء. وذلك دون أي ممارسات حقيقية. والمتبصر لمعظم المؤلفات العربية في اللسانيات يجد فيها من الأخطاء ما لا يغتفر. وهذا راجع إلى أمرين: التكوين الفردي التقريبي وكفاءة الأستاذ التي تنعكس على طلابه.

وشاعت أيضا فكرة اللسانيين المنظرين. وهم أعلى درجة من اللسانيين البسطاء. وجهل الواقع هو الذي يقود إلى الاعتقاد بأن كل من طبق منهجا غربيا على بعض المجالات العربية الضيقة منظرًا.

3. تحديد اللساني العربي يتطلب منا تعريف اللساني عموما.

اللساني عامة، بغض النظر عن جنسيته ولغة عمله هو دارس اللغة دراسة حديثة معتمدة على النظريات الحديثة. فهو إذن يختلف عن اللغوي القديم أو النحوي التقليدي أو مؤلف الكتب التعليمية. ولكن الحدود بين الدراسات القديمة والحديثة ليست واضحة بحيث يمكننا تحديد انتماء باحث من الباحثين إلى فئة من الفئتين.

هذا إذا افترضنا أن اللسانيات اليوم علم واحد. ولكن الأمر ليس كذلك. فاللسانيات لها مبادئها وقوانينها ومنهجيتها وهذه المبادئ تكوّن ما يسمى باللسانيات النظرية. واللساني الحقيقي في رأي الكثير هو من بحث في هذا المجال أو من هو متمكن منه إذا بحث في مجال مواز له.

ولكن اللسانيات علم جديد، صعب، متشعب. وقد لاحظنا عند قراءة كتب اللسانيات الاجتماعية العربية نفسها بعض تعثر أصحابها عند عرضهم للمفاهيم الحديثة، ولاحظ قبلنا "جورج مونان" في كتابه "مفاتيح الألسنية" سوء فهم السيميائيين مثل "رولان بارت" وبعض المفكرين لمفهوم اللغة language. وأرجع هذا لكون هؤلاء تعلموا اللسانيات عصاميين وفي زمان متأخر. وعاب المتخصصون على عالم مثل "إدوارد سابير" نظرتة للفونيم، وعاب آخرون على المتخصصين في اللسانيات الصورية والحاسوبية جهلهم للغة البشرية.

إذا كان من الواضح أنه لا يمكن أن نعد "رولان بارت" لسانيا ولا "شانون" صاحب "نظرية الإعلام الرياضية"، فالقضية تبقى مطروحة بالنسبة للذين درسوا اللسانيات الاجتماعية أو التعليمية أو الإحصاء اللغوي حتى وإن اتسمت أعمالهم بإضافات كثيرة للغة.

4. أما مصطلح "العربي" فهو في العرف يخص جنسية الباحث أو اللغة التي استعمالها في أعماله. فهناك لسانيون فرنسيون ولسانيون إنجليز ولسانيون أمريكيون. وقد تكون أعمال هؤلاء لا تخص لغاتهم وإن كتبت بها. والقضية قضية عُرْف وهي تطبق في علوم أخرى. فأنت تقول عن عالم ما في الرياضيات إنه روسي أو أمريكي أو كندي مع أن الرياضيات واحدة.

قضية عرق الدارس إن اعتبرناها ثانوية واكتفينا بلغة الدراسة وقلنا إن اللساني العربي هو كل من كانت أعماله بالعربية، نكون هنا قد ظلمنا من درسوا العربية بلغة أجنبية مثل الأساتذة "بكوش" و"ديلي" وظلمنا من درسوا العربية وهم أجنب مثل: "جان بتريك غيوم".

5. المستشرقون الذين درسوا العربية مثل "فليش" و"دي ساسي" و"بيريس" ساهموا كثيرا في انتشارها، وتعليمها. ولكن دراستهم كانت باللغات الأجنبية ومصطلحاتها. ولكن العربية ليست كاللهجات التي لم تعرف النحو. ولذا فإنهم لم يحددوا نحوها انطلاقا من الكلام الذي يعرض عليهم، ولكن من النحو العربي نفسه. فوَقَّعُوا أحيانا بين مصطلحات نحائنا ومصطلحات نحائهم وترجموا عندما استطاعوا الترجمة، وقلدوا عندما لزم التقليد.

والمستشرقون ليسوا لسانيين، فهم باحثون بذلوا جهدا كبيرا لاستيعاب اللغات الشرقية. ولن نستثني من بينهم إلا القلائل مثل "جان كانتينو" الذي كان لسانيا معروفا تعد دراسته لفونولوجية العربية دراسة وافية لم تغيب علماء الأصوات القدامى.

6. نجد هنا وهناك قوائم للسانيين عرب. ولن نناقش قضية وضع هذا في القائمة وإهمال ذلك، ولن نذكر أسماءهم. فهم في آخر المطاف لغويون خدموا بتفان لغة الضاد. وإنما يمكننا نصنيفهم كما يلي:

أ. فئة قديمة، تعبير أهلها واضح وأفكارهم بسيطة، تأثروا بالدراسات اللغوية العربية القديمة وحاولوا بعض التجديد في النحو العربي الذي هم ملمون به.

ب. جمهور محدود تأثر بمدارس حديثة فاخترع مصطلحات جديدة وألف كتباً تدرس أجزاء من النحو العربي بطريقة تظهر لمعظم القراء معقدة.
ج. جمهور ابتعد عن اللسانيات النظرية الأساسية ووجد ضالته في التداولية ونظرية الخطاب.

د. جمهور فضل العمل في اللسانيات التطبيقية فبحث في مجالات المعجم والتعليمية.

لو حاولنا الآن أن ننظر إلى مَلَمَح اللسانيين الغربيين ومسيراتهم العلمية، لرأينا أن الأوائل منهم جاؤوا بعد دراسات جادة في اللسانيات التاريخية أو في الأنثروبولوجية اللغوية، وكوّنوا حلقات أو جماعات مثل جماعة "براغ" المختصة في الفونولوجية. ومنهم من أنشأ مدارس معروفة لها مبادئها ومنهجيتها. وطبق تلاميذهم هذا على العديد من اللغات. ومما يلاحظ أن الأبحاث دقيقة جداً، وهي ميدانية في غالب الأحيان. أما المصطلحات فهي ثابتة واللغة بسيطة مفهومة.

وجدية التكوين وسلامة المنهجية هما ربما العنصران الغائبان على أهل اللسانيات النظرية عندنا.

7. هذا بالنسبة للباحثين، أما في ما يخص اللسانيات العربية نفسها فعلياً أن ندرس نجاحها وإخفاقها. والسؤال الذي يطرح بإلحاح هو علاقة الأبحاث القديمة بالأفكار الجديدة. فالنحو العربي نظام ومصطلحات ولكن أيضاً مفاهيم عامة كالقياس ونظرية العامل والبناء. فما صحة هذه المفاهيم؟ وما علاقتها باللسانيات؟

ولا يمكن تحديث الماضي وتصحيحه إلا بإجراء دراسات مقارنة بين القديم والحديث. وهي منهجية استعملها كبار اللسانيين بالنسبة للغاتهم.

8. على المستوى الفونولوجي يمكن إضافة أشياء كثيرة لأعمال القدماء، واستعمال وسائل حديثة. وهذه بعض الاقتراحات:

أ. تضاف المفاهيم التي تميز بين الفونيم والصوت الذي هو تأدية له، وبين الصامت والصائت وبين ما هو مقطعي وما هو نغمي. كما تستعمل المنهجية الخاصة بتحديد الفونيمات المبنية على الثنائيات الصغرى مثل "سار" و "صار" و "تاب" و "طاب" و "كتب" و "كاتب".

ب. الكتابة الصوتية العالمية سواء كانت صوتية ترمز للتأديات أو فونولوجية تشير إلى الفونيمات، تُستعمل في كل اللغات. وفائدتها بالنسبة للعربية كبيرة جدا. فهي التي تُبرز لنا خطية الكلام وتسلسل الصوامت والصوائت، وتزيل الغموض الذي نتج عن سيطرة المكتوب على المنطوق.

ج. الدراسات الفيزيائية للأصوات هي أيضا مجال ثري. ولكن هذه الدراسات ليست من مهمة عالم الفيزياء وحده. فاللغوي هو الذي يعرف القضايا المطروحة في مادته وسبل التعبير عنها أو حلها.

د. ولكي نفك العزلة عن اللغة العربية يمكن إجراء مقارنات بين صوتيات لغتنا وصوتيات لغات أخرى. وهذه الدراسات هي وحدها الكفيلة بإبراز خصائص لغة الضاد.

هـ. دراسة صوتيات اللهجات العامية تمثل مجالا ثريا تتجلى فيه قضايا عدة كالتأديات المختلفة للفونيم الواحد، والإدغام، وتخفيف الهمزة، وإهمال الحركات، وتعويض حروف بحروف. هذا المجال اشتغل فيه المستشرقون

فحددوا بواسطته خرائط لهجية ولكن عملهم لم يكن له الشراء الكافي واقتصر على التأديت الصوتية.

أما الدراسات اللهجية من طرف العرب أنفسهم فإنها، مع معرفتهم للميدان وابتعادهم عن الإيديولوجيات التقسيمية، كقيلة بأن تظهر لنا ارتباط العامية بالفصحى وتجانس العاميات المختلفة.

9. سنتطرق هنا لمجالات أقل أمنا من المجال الصوتي:

أ. على المستوى الصرفي يتبين لنا أن تعريف الكلمة عند القدماء "كوحدة لا يدل جزء منها على جزء من معناها" هو تعريف المرفيم كما يفهمه اللسانيون. أما التصريف التقليدي فمن الصعب الاستغناء عنه، ومن الصعب تغييره.

ب. أما مستوى التراكيب فهو المستوى الذي يصعب فيه تطبيق الجديد. وذلك أن المقارنة بين نظام وآخر لا يمكن أن تقع إلا بواسطة الأمثلة المأخوذة من الكلام. فالمفاهيم الخاصة بالمكونات المباشرة التي تمثلها مثلا "عُلب هوكيت" تصطدم بقضية الرتبة، كما أن تحديد الأصناف يتعارض مع النحو التقليدي. ففي: "جاء هذا الرجل" يرى النحو الحديث أن "هذا" محدد أول وأداة التعريف محدد ثان و"رجل" اسم وظيفته "فاعل". بينما للنحو التقليدي نظرة أخرى متعلقة بمفهوم البديل.

ج. في مجال الإعراب فإنه من اللازم تحديد ما هو وظيفي ولازم، وما هو من مجال الحشو. إن الآلات التي تترجم قد فهمت هذا ونحن لم نفهمه. ولو فهمناه لبسطنا كثيرا تعليم النحو.

د. وفي الخلاصة فإنه لا يمكن تغيير المفاهيم إلا من طرف باحثين أكفاء مطلعين على علوم اللغة حديثها وقديمها، باحثين يجيدون لغات أخرى غير العربية لأن هذه اللغات حقول تجارب ومنابع مباشرة للعلم اللغوي الحديث.

3. باب وظائف اللّغة

1. مفهوم الوظيفة
2. دورة التخاطب
3. الوظائف اللّغوية عند جاكسون
4. تعدد نظريات التخاطب
5. نظرية شانون الرياضية في الإعلام

3. باب وظائف اللغة

1. مفهوم الوظيفة

1. الوظيفة *la fonction* كلمة متعددة المعاني، تغيرت مدلولاتها عبر الزمن. وكانت في العربية محدودة الاستعمال كما يتبين من خلال المعاجم القديمة والنصوص. وإثر الاحتكاك اللغوي بالغرب أصبحت تغطي جل المعاني التي نجدها في اللغات الحديثة.

2. تعرف الوظيفة بأنها "نشاط محدد لعنصر من مجموعة أو لمجموعة بأكملها". وقد تعني الغرض من الشيء أو الهدف أو الفائدة.

3. وللوظيفة معان عدة متعلقة بالسياق الذي تذكر فيه.

أ. فقد تخص آلة ما كالسفينة التي وظيفتها تارة السفر أو النزهة وتارة الحرب وتارة التجسس. كما أن لباس وظائف عدة بعضها نفعية وبعضها اجتماعية أو جمالية.

ب. وقد تخص الوظيفة جزءا من آلة كجناحي الطائرة، ومحركها والمقود، وجهاز التبريد، والعجلات. بحيث أن لكل عنصر من عناصر أي آلة، دور يؤديه داخل النظام العام.

ج. والوظيفة مرتبطة بالإنسان، وتعني الدور الذي يلعبه في المجتمع، والعمل الذي يقوم به. وهي تترادف الشغل والمهنة. فهذا موظف عند الدولة، وذاك تاجر أو بناء والآخر مهندس أو صيدلي.

د. وتخص الوظيفة جزءا من الجسد. فالرئتان للتنفس، والأذنان للسمع والرجلان للسير. ولجهاز النطق وظيفة التلفظ.

4. في الرياضيات تدل كلمة *fonction* على "علاقة تقرن عنصرا من مجموعة بعنصر واحد من مجموعة ثانية". ولكن العربية ترجمت هذا المصطلح بكلمة "دالة". وهذا ما يظهر لنا أن مصطلحات لغة ما، لا تساير دوما مصطلحات لغة أخرى على مستوى الاستعمال. فمثلا عبارة *attestation de fonction* تترجم عندنا بشهادة عمل بدلا من شهادة وظيفة.

5. في مجال النحو تستعمل كلمة الوظيفة للدلالة على الدور الذي يؤديه جزء من الكلام في الجملة. فالاسم قد يكون فاعلا أو مفعولا به أو نعتا أو حالا. وهذا الاستعمال مستورد من النحو الغربي الذي يضع مجموع هذه المفاهيم تحت راية: *les fonctions grammaticales* أما علماءنا القدامى ، فإنهم لم يلجؤوا أبدا إلى هذا المصطلح.

6. في الصوتيات تؤدي بعض العناصر ووظائف تمييزية قد لا تؤديها في لغات أخرى. فالتفخيم من الصفات التمييزية في العربية وهو غير تمييزي في الإنجليزية أو الفرنسية.

والوظيفة التمييزية *fonction distinctive* هي من أهم الوظائف التي تستعملها اللسانيات. وقد بني عليها تحديد فونيمات اللغات ومورفيماتها.

7. ارتبط مصطلح الوظيفية بمدارس علمية مشهورة، خصوصا في علم الاجتماع واللسانيات. ولكل هذه العلوم مفاهيم ومصطلحات تخص مجال الوظيفة الواسع.

8. لما نستعمل عبارة "وظائف اللغة" فإننا نقصد بها شيئا عاما يخص ماهيتها وأهدافها. ويظهر هذا من خلال تعريفها، فهي:

أ. وعاء أساسي لاحتواء الأفكار والأحاسيس حتى أن البعض يعتقد أننا لا نستطيع التفكير بطريقة منظمة خارج مجال اللغة.

ب. وهي أداة للتواصل مع الغير.

وهذان العنصران درسهما القدماء منذ اليونانيين. وشرحهما العرب في مجالي علوم اللغة والبلاغة. ونُرجع القارئ إلى المقدمة البليغة التي يحدد فيها عبد القادر الجرجاني اللغة في كتابه: "دلائل الإعجاز".

الوظيفة الأولى تسمى الوظيفة التعبيرية *la fonction expressive* والثانية

وظيفة التواصل *la fonction de communication*

وجرت مناقشات حادة بين اللسانيين حول تغليب وظيفة على أخرى. فإذا كان الكل متفق على أن التواصل هو أهم شيء في اللغة فإن البعض همش تماما وظيفة التعبير التي تفقد حتما إلى النص الشعري الذي تصعب دراسته لسانيا.

9. لللسانيين الأوائل اهتمام قديم بوظائف اللغة مهد لتوسيع دراستها

وإنشاء علوم تدرسها.

أ. خلال الثلاثينات من القرن الماضي كان الاهتمام من طرف اللسانيين بالوظيفة التمييزية التي هي أساس كل الممارسات وفصلها عن باقي الوظائف.

ب. تروبيستكوي كان من اللسانيين الأوائل الذين اهتموا بتحديد

الوظائف. فنراه يحدد ثلاثة وظائف:

الوظيفة الإفهامية *fontion representative* التي يحاول الناطق بواسطتها

تمثيل الأمور التي هي موضوع الحديث

الوظيفة التعبيرية *fonction expressive* حيث يعطي الناطق معلومات حول جنسه وهيمته وحالته النفسية خلال الحديث.

الوظيفة التأثيرية *fonction appellative* حيث يحاول الناطق إحداث مشاعر معينة لدى السامع.

ولكن تروبتسكوي مهتم بالصوتيات وحدها. وتطبيق كل هذه الوظائف في مجال دراساته صعب. ولذا فإننا نراه مفضلاً الوظيفة الإفهامية وترك الباقي للأسلوبية الفونولوجية.

ج. أما ساير فإنه، ودون استعمال عبارة "وظيفة"، توصل إلى نتائج مماثلة عند محاولته تعريف اللغة.

د. وأما بلومفيلد زعيم المدرسة السلوكية اللسانية فإنه أرجع في البداية كل وظائف اللغة إلى التواصل. ولكنه انتبه إلى وجود عناصر في الخطاب تعرب عن ماهية المتكلم فاضطر إلى إدخال الوظيفة التعبيرية في نظامه هـ. كل هذا التفكير حول الوظائف أدى سنة 1960 إلى نظرية جاكسون الذي توصل إلى مخطط شامل يصف فيه عناصر التخاطب.

2. دورة التخاطب

1. هذه الدورة عبارة عن مخطط مبني على التواصل قبل كل شيء وعلى الثنائية لغة - كلام.

والتواصل يقتضي على الأقل أربعة عناصر: المرسل والمرسل إليه والرسالة التي يراد تبليغها، وطريقة التواصل. بحيث يكون لدينا:

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه

- هذا المخطط سمي "دورة التخاطب" لأن المرسل والمرسل إليه قادرين على استبدال الأدوار. وهي معروفة منذ نشأة اللسانيات.
- والتواصل يجرى حسب الآليات الآتية:
- أ. المرسل يشفر رسالته أو إن شئنا يعبر عن أفكاره أو مقصوده بواسطة الكلمات أو الإشارات أو أي وسيلة أخرى ثم يبعث هذه الرسالة.
 - ب. الرسالة تأخذ طريقها نحو المرسل إليه بواسطة قناة هي الهواء والأمواج التي تنتقل فيه إن كان التواصل بواسطة الكلام. وفي هذه الحالة المرسل هو المتكلم والمرسل إليه السامع.
 - ج. تصل الرسالة إلى المرسل إليه فيفك شفرتها أي يفهمها.
 - د. وحتى يتم التواصل فمن اللازم أن يملك الطرفان القانون الذي بني عليه الكلام.
2. وإذا اقتصرنا على المجال اللغوي البشري. فالمقصود بالشفرة هو اللغة بسائر أنظمتها أو إن شئت قواعدها. والقواعد هي باطنية قبل كل شيء. لأن الذين لم يدرسوا النحو يملكون بالفطرة تلك القواعد وهو ما يُعبر عنه بالكفاءة. أما الرسالة فهي من مجال الكلام الذي تتجسد فيه اللغة.
3. تنتقل الرسالة عبر الهواء على شكل أمواج عندما يكون التواصل صوتيا مباشرا. وقد تنتقل عبر خيوط الهاتف أو بواسطة الإنترنت.
- وقد تكون الرسالة مكتوبة فتتغير القناة التي توصل الرسالة.
4. أما اللغة فقد تكون لهجة محلية أو دارجة أو كلاما فصيحاً أو لغة أجنبية أو خليطاً من لغتين. وقد تكون لغة متخصصة كلغة الاقتصاديين والرياضيين.

5. وتلعب هنا الكفاءة اللغوية بل قل الكفاءة في المجال المعين دورا هاما حتى يحسن التواصل. لكن هذا التواصل لا يستطيع أن يكون مثاليا لأسباب عدة من بينها اختلاف المستوى اللغوي بين الطرفين ونمطه. فلكل فرد لغة شخصية تسمى "الإيديوكراسي" ولا يمكن أبدا أن تتطابق لغتا فردين تطابقا تاما. وقد يكون للفردين مواقف مختلفة بالنسبة لموضوع الخطاب حتى أنهما يكونان غير راغبين في التواصل الحقيقي. كل هذا يجعل من التواصل شيئا نسبيا بحيث أن الذي يضيع من فحوى الرسالة أكثر مما يصل.

3. الوظائف اللغوية عند جاكسون

1. من الواضح أن دورة التخاطب البسيطة لا تظهر كل العناصر الواردة في عملية تواصل الأفراد. فقد يعبرون عن عواطفهم خلال الكلام أو يبدون اهتمامهم بالشخص الذي يخاطبونه أو يركزون على موضوع التواصل. وفي هذا الصدد حدد جاكسون عدة وظائف متعلقة بعملية التخاطب.

2. انطلاقا من المخطط الآتي :

السياق

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه

الاتصال

القانون

يرفق جاكسون بكل عنصر من العناصر المذكورة وظيفة خاصة به.

أ. الوظيفة التعبيرية expressive أو قل الانفعالية émotive تخص المرسل فهي التعبير عن موقفه بالنسبة للخطاب. وهذه الوظيفة تظهر في استعمال بعض الضمائر أو نوع من التراكيب أو حتى على المستوى الصوتي حيث يكون التركيز على حرف من الحروف أو مد حركة كقولك بدلا من "أنا" "أنا" بتضعيف الهمزة أو "أنا" بزيادة في مد الألف.

وقد ذكر لنا جاكبسون قصة ممثل أدى المربك "هذا المساء" بأربعين طريقة تختلف من ناحية المقصود به.

ب. الوظيفة الإفهامية هي التي تنقل المعلومات إلى "المرسل إليه" أي أنها تخصه بالقصد. والرسالة تمتاز هنا بأفعال الأمر أو صيغ الاستفهام. والجدير بالذكر أن الجمل الإنشائية المبنية على المسند والمسند إليه هي من ناحية المنطق قضايا تحتمل الصدق أو الكذب مثل: "السيف أصدق إنباء من الكتب" بينما في: "ما تشاؤون افعلوا" فإنه لا يمكن تحميل هذا التركيب صدقا أو كذبا.

ج. الوظيفة المرجعية fonction référentielle ترتبط بالسياق الذي قيلت فيه الرسالة.

د. الوظيفة التبيهية la fonction phatique تخص قناة الاتصال. والهدف من هذا النوع من الخطاب هو إقامة التواصل، أو تمديده، أو جلب اهتمام السامع. فمثلا عندما يقع تشويش في الهاتف يسأل المتكلم مخاطبه: آلو، هل تسمعي؟

د. وظيفة ما "وراء اللغة" fonction métalinguistique ترتبط بالشفرة وتقوم بوصف اللغة نفسها. المنطقيون بقسمون اللغة إلى اللغة التي تتكلم

عن "الأشياء" واللغة التي تتكلم عن اللغة نفسها. ويسمونها اللغة الخلفية. أو ما وراء اللغة le métalangage وهذا الصنف من الخطاب لا نجده فقط في العلوم ولكن أيضا في الحديث العادي.

هـ. الوظيفة الأخيرة تخص الرسالة نفسها وقد سماها جاكبسون الوظيفة الشعرية la fonction poétique . وهي في رأيه التركيز على الرسالة نفسها. ولا تقتصر الوظيفة الشعرية على الشعر نفسه فإننا نجدها في الكلام العادي. ويذكر لنا صاحب الدراسة مثلا يخص حملة انتخاب رئيس الولايات المتحدة السيد "أيزنهاور" الذي يكنى بآيك فقد كان شعارها "أي لايك آيك" I Like Ike . في هذا الشعار نجد شكلا بلاغيا تعرفه كل اللغات وهو الجناس.

وإذا رجعنا لدورة الخطاب فإننا نرى أنها إن قوبلت بالوظائف تأخذ الشكل الآتي:

المرجعية

تعبيرية ← شعرية ← انفعالية

تنبيهية

فوق لغوية

3. من اللازم التنبيه إلى أن الخطاب مهما كان مورده فهو نادرا ما يكون مقتصرًا على وظيفة واحدة وإنما نراه مزيجا من هذه العناصر وما المقصود هنا إلا تغليب إحدى الوظائف على الأخرى.

ومن المعلوم أن هذه الدورة نوقشت كثيرا وفتحت آفاقا عدة في مجال علوم التواصل.

4. ونريد بدورنا إبداء ملاحظات تخص الوظيفة الشعرية التي تكمن حسب جاكسون في التركيز على شكل الرسالة. العرب عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، عرفوه كجنس أدبي، ولكنهم تداركوا شيئا غير وارد في التعريف، فقسموا هذا الكلام الموزون إلى شعر ونظم. النظم هو ما يخص القصائد التعليمية كألفية ابن معطي في النحو، ومنظومات ابن عاشر في الفقه ومتن الجزرية في التجويد، وهو خارج عن مجال الشعر.

وذلك أن هذه المنظومات تظهر خالية من الشعرية التي قوامها الذاتية، وكأن مهمتها انحصرت في تبليغ المعلومات. وهي لا تختلف عن الرياضيات أو النحو أو الفقه إلا باتسامها بوظيفة الذاكرة أو الحفظ *la fonction mnémotechnique* لأن ما هو موزون يرسخ في الذهن أكثر مما هو غير موزون. وللوزن وظيفة أخرى هي الوظيفة الغنائية التي نلاحظها عند من يتغنى بهذه القصائد.

ونلاحظ أيضا أن هذه القصائد شبه خالية من الأشكال البلاغية كالتشبيه والاستعارة والجناس.

ولكن الوظيفة الأساسية التي حددها جاكسون وهي التركيز على الشكل موجودة هنا: فالوزن والقافية هما من مجال الشكل. وهذه القصائد تختلف عن النشر العلمي. فهل ننفي عنها كل شعرية أم نقول إن لها رجلا في الشعر وأخرى في النشر؟

4. تعدد نظريات التخاطب

1. ما اقترحه جاكسون كان مختصرا وواردا في دراسة خصت الشعرية. فلا غرابة أن يقترح اللسانيون وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا والرياضيون والنقاد أصنافا من التخاطب ووظائف أدت إلى إنشاء حقول جديدة تنتمي من قرب أو من بعد إلى اللسانيات الأساسية.

2. بالنسبة لأشكال الرسالة فهي لا تقتصر على جملة وإنما هي مكونة من خطاب مطول قد يكون بين شخصين أو أكثر وقد يكون منطوقا بطريقة تقليدية أو عبر الأثير أو مكتوبا بطرائق مختلفة كالرسالة الإلكترونية أو الإدارية أو الكتاب العلمي أو الأدبي. ويرافق هذه الرسالة اللغوية رسالة أخرى خارجة عن الكلام قد تكون من مجال حواس أخرى وذلك مثل الإشارات أو صور الفيديو أو السينما بحيث أن الرسالة تكون مكونة من طبقات متراكمة آنية في كثير من الأحيان.

3. بالنسبة للمرسل والمرسل إليه فلكل منهما لغته الخاصة بل لغاته. فهو يستعمل مثلا ما فصح منها في المكتوب أو في المناسبات الرسمية، وما سهل إدراكه في مواقع أخرى. فلكل مستعمل للغة كفاءة تخص التعبير وقدرة على الفهم أي تشفير ما يصله. كما أن لكل منهما بعدا نفسيا واجتماعيا وعقائديا. كما أن لكل منهما موقفا من لغة الخطاب فقد يجذبها أو يعاديها ولا يقبل استعمالها إلا مكرها.

4. بالنسبة للسياق فهو يأخذ طابعا لا يكاد ينتهي. فقد يكون الخطاب بين صديقين حميمين لا قصد من ورائه إلا الدردشة، وقد يكون السياق متعلقا بما يحدث في قاعة تدريس أو قاعة محاضرات. وتكون هنا علاقة

المرسل مع المرسل إليه علاقة طبقية مبنية على تفوق في العلم أو في المنصب.

5. دراسة التواصل من مجال اللسانيات ولكنها أيضا من مجال علم النفس أو علم الاجتماع أو علم الحواسيب. وكل علم من هذه العلوم يُدخل في مخطط التواصل عناصرَ كثيرةَ يطول ذكرها.

5. نظرية شانون الرياضية في الإعلام

1. حتى نفهم هذه النظرية وندرك مقاصدها علينا أن نعرف من هو مؤسسها، وفي أي ظروف أنتج أعماله. كلود إدوارد شانون Claude Elwood Schanoon ولد سنة 1916 بأمريكا ودرس الهندسة الكهربائية والرياضيات في جامعة ميشيغان من حيث تخرج سنة 1936 ثم أكمل دراسته في "الإيم آي تي" حيث نال الدكتوراه في الرياضيات. اشتغل في مخبر شركة بيل للهواتف منذ سنة 1941، ثم اهتم بعلم الشيفرة أو "الكريبتوغرافيا" وذلك في إطار المخبرات الأمريكية. وبقيت أعماله سرية حتى سنة 1948 حيث صدر بحثه الموسوم بـ "النظرية الرياضية للإعلام" والذي أعقبه كتاب صدر سنة 1950 مع تعليقات لأستاذه "ويفر" Weaver.

لدينا إذن ثلاثة عناصر تشرح نشأة هذه النظرية: الرياضيات، وهندسة الاتصال والتشفير. ويمكن أن نضيف إليها عامل الحوسبة الآلية التي بدأت تظهر للوجود.

2. مخطط شانون للاتصال يختلف قليلا عن مخططات اللسانيين وذلك أنه أضاف عنصرين يقعان بين المرسل والمتلقي، وهما موقع التشفير وموقع فكّه بحيث يكون لدينا:

منبع الرسالة ← المرسل ← القناة ← التلقي ← المرسل إليه

قد تختلف الآراء في وصف عناصر هذا المخطط. ولكن إذا وضعناه في سياق اختراعه فإننا نرى أن:

أ. منبع الرسالة هو الشخص أو الهيئة التي تقوم بإصدارها.

ب. الرسالة تشفر بلغة خاصة قد تكون لغة سرية أو بواسطة "المورس" مثلا وهي لغة كانت مستعملة في بث البرقيات مبنية على رمزين: الطويل والقصير.

ج. جهاز الإرسال أو الوسيط قد يكون الهاتف مع الأسلاك التي تنقل الصوت أو الراديو أو البريد عندما تكون الرسالة مكتوبة أو شبكة الويب العالمية (الإنترنت) اليوم. وقد يكون الوسيط هو الهواء عندما يكون التواصل شفويا كما هو الحال في دورة الخطاب اللسانية.

3. في هذه النظرية العنصر الأساسي هو "المعلومة" وعنصران متعلقان بها هما "التشويش" و"الحشو".

أ. فالتشويش أو الضوضاء هو كل ما يعتري الرسالة الأصلية، من نقص أو زيادة، كأن يقع خلل في جهاز الإرسال نفسه، أو خطأ في التشفير أو فكّه. والتشويش يقود الرسالة إلى الغموض في بعض أماكنها.

ب. أما "الحشو" فهو إضافة معلومات إلى الرسالة، معلومات غير لازمة بالضرورة، غرضها الوحيد تحسين التواصل ومحاربة التشويش.

ويقود هذا إلى تقابل بين الاختصار والحشو.

4. أما المعلومة قي هذه النظرية فهي مبنية على المبدأ الآتي:

أ. المعلومة التي تخص حدثا ما نسميه "س" قيمته عكس احتمال وقوع الحدث. أي أن تزايد احتمال وقوع الحدث يقابله تناقص المعلومة. فلو قلت لك ونحن في عز الصيف وفي بلد جنوبي "غدا ستتساقط الثلوج" فإنني أعطيك معلومة مهمة لأن هذا الاحتمال ضعيف. أما إذا قلت لك هذا ونحن في يوم اقترت فيه درجة الحرارة من الصفر فإن المعلومة تكون ضعيفة.

ب. ويمكن كتابة هذا بالطريقة الآتية:

قيمة معلومة الحدث س = $1/H$ احتمال ورود س

أو باختصار شديد: $M = 1/H$ حيث م هي المعلومة و ح هو الاحتمال. ولكن شانون لم يستعمل هذه المعادلة بل ربطها بلوغاتومات القاعدة الثنائية وأدرج مفهوما اسمه "الأنثروبيا". وقد تركنا دراسة الأنثروبيا إلى باب الرياضيات واللغة حتى نسط العرض.

5. نظرية شانون قادت اللسانيين إلى مفهومي الإيجاز والإطناب. وذلك

أن الإنسان عند التلفظ أو الكتابة يبذل دائما جهدا عقليا أو عضليا. وهو ميال إلى اجتنابه. يختصر بعض الكلمات أو بعض الأصوات فكلمة "ميتروبوليتان" الطويلة أصبحت ميترو. والعبارة je ne sais pas لأدري بالفرنسية أصبحت كذا. Ché pas

أما تخفيف الهمزة في العربية والإدغام وعدم التمييز بين صوتين كالذال والذال في بعض العاميات فهو أيضا نتيجة لهذا الاقتصاد. والزحاف

في العروض والتميز في الرياضيات والامتناع عن تشكيل الحروف في الكتابة كل هذا من باب الاقتصاد.

ويقابل الاختصار: "الحشو"، وميزاته تكمن في تحسين التبليغ. فالإعراب في كثير من الحالات غير لازم وهو تأكيد على الوظيفة. والإملاء الفرنسي يحمل كثيرا من الحشو فعلامات الجمع في كثير من الأحيان غير واردة في النطق وجاءت هنا للتأكيد. كما أن كتابتنا الوافية تعد ضوابطها من الحشو. وإهمال وضع الحركات يعد اقتصادا من طرف الكاتب.

واللغة تتأرجح بين الاقتصاد والحشو وهي تجد مع مر السنين التوازن بين هذين القطبين.

القسم الثاني: العربية والحضارة

1. باب الثقافة والحضارة.

1. الثقافة ومدلولاتها

2. الحضارة وسماتها الأساسية

1. باب الثقافة والحضارة.

1. الثقافة ومدلولاتها

1. لكلمة "الثقافة" مدلولات عدة. ففي العربية كانت من بين معانيها الحكمة والفطنة والوعي والتذوق والحدق. كما أن من معانيها التعليم والتهديب. وتطورت معاني هذه الكلمة مع احتكاك العربية باللغات الأخرى فسايرت مدلولاتها.

وفي الغرب استعملت في البداية كلمة الثقافة أو *la culture* للدلالة على الفلاحة. وتطور المعنى بعد ذلك، فأصبح يدل على "مجموعة المعارف التي تخص مجالا ما كالرياضيات أو الاقتصاد أو علم الحواسيب". فيقال: الثقافة الرياضية والثقافة الاقتصادية والثقافة الحاسوبية.

وتقرن كلمة الثقافة أيضا بالفرد فيقال مثلا: "هذا الشخص مثقف في مجال الموسيقى" أي أنه يفهمها ويتذوقها دون ربما معرفة أسسها وممارستها.

2. وقد تكون الثقافة عامة *culture générale* ويقصد بها مجموعة من المعارف تضم عدة مجالات. وينعت بـ"المثقف" كل شخص يملك هذه المعارف حتى وإن كانت خارجة عن اختصاصه. وهو بذلك يتقابل، لا مع الأمي وحده، ولكن أيضا مع من يكتفي بالمعلومات المحصورة في اختصاصه

كالمهندس الذي لا يعرف إلا مواد البناء، والصيدلي الذي ينحصر اهتمامه في عقاقيره، إن كلمت أحدهم عن الفن أو الأدب أو السياسة فإنك لن تجد لديه من المعلومات ما يستطيع أن يجري معك بواسطتها حواراً. 3. وقد يختلف مدلول الثقافة عن مدلول المعرفة المكتسبة في المدارس والجامعات. فالجميع يعرف المقولة المشهورة: "الثقافة هي ما يبقى عندما ننسى كل شيء".

وذهب الشاعر "بول فاليري" إلى أبعد من هذا عندما صرح: "عدو الثقافة هي الشهادة" قاصداً بذلك على حد سواء الشهادة المدرسية أو الجامعية. وأكد رأيه "أوجين يونسكو" الكاتب المسرحي المشهور عندما قال: "كل ثقافة يجسدها أعداء الثقافة" ويقصد بهذا أن الثقافة الحقيقية هي عدو للثقافة التقليدية.

وتلعب الثقافة الأدبية والفنية دوراً هاماً في مجال الثقافة العامة وذلك أنه لا يشترط فيه التعلّم. فمحب الأدب ليس بالضرورة روائياً أو شاعراً. والروائي والشاعر لا يذهبان إلى المدرسة أو الجامعة ليتعلما مهنتهما، لأن الإبداع لا يدرّس إلا لماماً.

وقد لاحظ العرب في هذا الشأن أن شعر العلماء ضعيف في كثير من الأحيان. ونلاحظ بدورنا اليوم قلة تكوين اللسانيين في الأدب، باستثناء "جاكسون" الذي اشتغل مع الشكليين الروس، وكتب أسطراً جميلة في الشعر منظراً ومحللاً كما فعل عند تشريحه قصيدة "القطط" لبودلير وتحليله للوحة الرسام "لي دوناني روسو" Le Douanier Rousseau.

4. وتنقسم الثقافة إلى ثقافة قديمة وثقافة حديثة. وغالبا ما يخلق هذا الانقسام عراكا بين المجددين والتقليديين. هذا ما حدث عند نشأة السريالية مثلا في الأدب والرسم، ثم عندما ترك الرسامون تمثيل الطبيعة في اتجاه التجريد.

ويذكر الجميع عندنا الجدل الحاد الذي أثاره التخلي عن الشعر العمودي واستبداله بشعر التفعيلة ثم بالقصيدة النثرية عند بعض المبدعين.

5. ويكوّن المثقفون *les intellectuels* في كل بلد نخبة لها مسؤوليتها في توعية المجتمع وجره نحو الغد الأفضل. وهم في الرأي العام "العقلاء". والمثقفون يصعب تحديدهم فقد نجد بينهم الأدباء والعلماء والصحفيين. ونراهم اليوم في منصات التلفاز المحلية والعالمية يتحاورون حول مواضيع شتى. وغالبا ما يتبين للمشاهد أن هذه الفئة ليست دوما راشدة فهي في كثير من الأحوال غير صائبة في آرائها. ويرجع هذا لكون الثقافة العامة لا تستطيع تعويض الثقافة المتخصصة، والثقافة المتخصصة لا تستطيع أن تتعدى مجال الاختصاص.

6. والثقافة عند جمهور الناس ليست هي الثقافة عند علماء الاجتماع والأنثربولوجيا. فهي متعددة المعاني حتى أن بعض الباحثين ذكر أكثر من ستين تعريفا لها.

أما منظمة اليونسكو فإنها اعتمدت سنة 1986 التعريف الآتي:

"إن الثقافة بمفهومها الشامل هي الصفات المميزة، الروحية والمادية، الفكرية والعاطفية، التي تمثل مجتمعا أو فئة اجتماعية. وهي تشمل الفنون والآداب وأنماط الحياة، والقيم الاجتماعية، والتقاليد والمعتقدات"

ومن بين التعاريف في هذا المجال شاع تعريف تايلور " Taylor
"الثقافة هي وحدة مركبة تشمل المعارف والعقائد والقوانين والفنون
والعادات وإلى كل ما يكتسبه الإنسان من عادات بصفته عضوا من
المجموعة"

أما "دوركهايم" فإنه أتى بعبارة مختصرة وشاملة:

"الثقافة طريقة للتفكير والإحساس والنشاط"

كل هذه الحدود تعمم مفهوم الثقافة وتربطها بالمجتمعات مهما كان
رقبها. ونراها قد أخذت موقف اللسانيات التي سوت بين اللغات واللهجات.
والثقافة بهذا المعنى العام تملك عدة وظائف يمكن إرجاعها إلى
وظيفتين أساسيتين:

أ. الوظيفة الاجتماعية التي غرضها توحيد المجموعة حول أهداف معينة
وحمايتها من الاندثار وتمكينها من مواجهة "الغير".

ب. الوظيفة النفسية وهي القالب الذي يحدد شخصية الفرد فيجعله
خاضعا لعادات اكتسبها منذ الطفولة وأنماط تفكير ورثها عن الأجداد.

7. وتصنّف الثقافات اليوم حسب مواكبتها للعصر إلى ثقافات حديثة
تنويرية وأخرى تقليدية ظلامية. فاليوم لا يتقبل جل المفكرين تكريس كل
المكونات الثقافية كما عرّفها علماء الاجتماع. فهضم حقوق المرأة والوثنية
والشعوذة تعتبر سلبية بالنسبة للجميع.

وقاد هذا بعض المفكرين إلى استبدال مفهوم الثقافة الانثروبولوجي
بمفهوم "الثقافة الإيجابية" التي لا تنكر الأسس التي تحدد ثقافة الجماعات

وإنما تريد جرهم نحو الحداثة بواسطة التعليم والتوعية. وهذا الموقف يمكن نعته بـ"تحديث الثقافة".

8. من أبرز مكونات الثقافة نجد اللغة. فهي وعاء للتفكير والأدب ووسيلة للتواصل بين الجماعات، ورابط بين الحاضر والماضي.

أما من ناحية وظائف اللغة فقد تكون اللغة ثقافيةً أو مجرداً لهجة. وإن كان بعيداً عن أذهاننا احتقار اللهجات، فإن الواقع يفرض هذا التمييز. فهو الذي يفصل بين المثقف في العُرف وبين الأمي الذي يجهل الكتابة والقراءة. وفي مجال تدريس اللغات الأجنبية لا يفوتنا ذكر اهتمامات التعليمية الحديثة التي تشي على إدراج الثقافة في مناهجها. والحجة أن اللغة لا تفهم حق الفهم إذا جُهِلت عادات أهلها.

ومن المنظرين من يحدد دوائر مشتركة المركز أصغرهما البعد الصوتي ثم بعد الكلمات ثم بعد التراكيب ثم بعد الثقافة.

9. الازدواجية اللغوية تطرح مشكلة عويصة بالنسبة للبلدان التي عرفت استعماراً طويلاً ومبريراً، سلبها حقوقها المادية واللامادية وفرض عليها لغته وبرامج تعليمه وتاريخ جنسه. وهذا يبعثنا على الملاحظات الآتية:

أ. عندما تكون لغة الأمومة لهجة لا تكتب ولا تحوي مفردات الحداثة فإن المثقف الذي تعلم لغة المستعمر ووظفها في المجال العلمي يرى نفسه أمام لغتين إحداهما تحمل معاني الحداثة والأخرى معاني التخلف. فتراه مزدوج اللغة ومزدوج الثقافة أيضاً، وربما منفصم الشخصية لا يستقر لسانه ولا فكره على نظام من النظامين.

ب. عندما نكون أمام لغتي حضارة كما هو الشأن في المغرب العربي حيث تتقابل العربية مع الفرنسية، نجد من يُحمّل لغة الضاد الأفكار التقليدية الرجعية تاركا الحداثة للغة موليير. ولهذه الازدواجية أثر يتعدى الفرد لينتقل إلى بعض الجماعات.

ج. إن العربي أو الإفريقي الذي يتكلم لغة المستعمر، ينطق بها كمستعمر. وقد لا حظنا هذا مرارا في حصص التلفاز الأجنبي حيث يرتبك مثقفون بارزون، فاقدون السيطرة على الكلمات بل على الأفكار.

د. الاتجاه الذي يقود بعض البلدان إلى البحث عن لغة عالمية محايدة كالانجليزية، اتجاه تمليه إرادة جماعية لحل القضايا العلمية والتكنولوجية دون المساس بالهوية اللغوية.

هـ. اللغة الاصطناعية المسماة "اسبرنتو" اخترعت لأغراض ثقافية لا تقتصر على العولمة. فنشأتها كانت في بلد كثرت فيه الصراعات الاثنية-اللغوية. فتبين لمؤسسها أن لغةً محايدة، قد تكون الحل الأمثل. ويبقى هذا الحل مطروحا في رأينا بالنسبة لقارات بها آلاف اللهجات المتناحرة.

2. الحضارة وسماتها الأساسية

1. مصطلح الحضارة عند العرب كان يعني في البداية الإقامة في المدن والقرى. والحضارة تقابل بهذا المعنى البداوة وهو ما يظهر جليا في البيت المشهور:

يا عاذرا لامرئى قد هام في الحضر... وعاذلا لمحب البدو والقفور

كما أن الحضارة ربطت بالعمران عند ابن خلدون، وهو منهج سبقه إليه اليونانيون.

2. بعض المفكرين لا يميزون بين الثقافة والحضارة، ويعدون الكلمتين مترادفتين. ولكن شاع استعمال كلمة حضارة للدلالة على ثقافات امتازت قديما بتفوقها في العمران وذلك مثل : حضارات جنوب أمريكا وحضارة الصين وحضارة الهند وحضارة ما بين النهرين وحضارة اليونانيين وحضارة الفرس والحضارة الغربية التي تخص اليوم بلدان أوروبا وأمريكا.

وقد رتب بعض الباحثين الحضارات حسب أهمياتها مع كثير من الاختلاف، اختلاف راجع إلى عوامل إيديولوجيا، حتى أن البعض تناسى الحضارة الإسلامية العربية ولم يدرجها من بين الحضارات الكبرى.

3. من الواضح أن الاختلاف بين الثقافة والحضارة لا يكمن في طبيعة المفهوم ولكن في الدرجة. وكأن الحضارة مستوى أعلى من الثقافة أو أن الثقافة جزء من الحضارة.

4. ومن الواضح أيضا أن الحضارة مرتبطة بالمكان والزمان. فالحضارات الكبرى شملت كلها أراض شاسعة وشعوبا وقبائل متعددة عاشت متحدة طوال قرون تجمعها عادات وأهداف مشتركة رغم تنوعها. كما أن الحضارة مرتبطة بوجود حكم مهيكلمقنن، وتسيير راشد، وقوانين مطبقة على الجميع، وقضاء عادل، واقتصاد مزدهر، وجيش يحمي البلاد، وشرطة تقوم بأمن المواطنين، ووسائل نقل في البر والبحر. وغير ذلك مما يسهل حياة المواطنين.

5. ومن البين أن الصفات التي تميز الحضارة عن الثقافة متوفرة في الوطن الذي نشأ مع ظهور الإسلام.

أ. بالنسبة للزمن امتدت هذه الحضارة من القرن الثامن الهجري حتى القرن الخامس عشر مائة بعصر ذهبي بين القرن التاسع والثاني عشر.

ب. بالنسبة للمكان امتدت هذه الحضارة عبر ثلاث قارات وذلك من الصين حتى أوروبا.

ج. أما الوسائل المادية والثقافية الأخرى فعلماء التاريخ وصفوا لنا بإطناب كل ما يخص الحكم والإدارة والتسيير والأمن والتجارة والزراعة والصناعة والقوانين والقضاء والفنون والعلوم والآداب.

ولكن هذه الحضارة التي لا نشك في أهميتها، ما اسمها؟ هل هي إسلامية؟ أم عربية؟ أم كما يقول البعض اليوم: عربية إسلامية؟ من الواضح أن هذه الحضارة مبنية على سمتين بارزتين هما الدين واللغة.

فتسميتها بالحضارة الإسلامية دافعه تغليب الدين وذلك بحجة أن العديد من العلماء الذين برزوا في هذه الحضارة هم فرس أو أتراك أو حتى إسبان. أي أنهم من إثنيات مختلفة تجمع معظمهم العقيدة. ولكن هذه التسمية تقصي من ساهموا في هذه الحضارة وهم من ديانات أخرى.

أما تسميتها بالحضارة العربية فهذا يعني توحيد الأمة حول اللغة. غير أن لغة الضاد ليست "لغة أمومة" كل سكان الرقعة التي شملتها هذه الحضارة. أضف إلى هذا أن التعريب إن خص أجزاء كبيرة من الوطن الإسلامي فهو لم يشمل كل البقاع.

6. أُلِّفت العديد من الكتب العربية والأجنبية التي تناولت موضوع حضارتنا، بعضها عنوانه "الثقافة العربية" وبعضها "الثقافة الإسلامية". والميل نحو قطب أو آخر راجع في كثير من الأحيان إلى إيديولوجية المؤلف. وستشير هنا إلى ثلاثة كتب من بين المؤلفات التي تناولت الموضوع باللغة الفرنسية وهي:

La civilisation arabe de Jean Claude Risler 1965.

La pensée arabe de Vincent Monteil 1976.

Histoire des Arabes de Dominique Sourdel, 1980

في مقدمة الكتاب الأول يقول المؤلف:

« Notre souhait sincère est que ce livre puisse permettre de de faire mieux comprendre l'âme musulmane..Face au monde arabe l'occidental hésite comme devant un mystère »

أي بتصرف: "أملنا الصريح هو أن يساهم هذا الكتاب في فهم الروح الإسلامية. أمام العالم العربي، الإنسان الغربي يتردد وكأنه أمام لغز". نلاحظ هنا أن "ريسار" تكلم عن عالم عربي وروح إسلامية وكأنه سوى بين الانتماء الإسلامي والانتماء العربي. أما "دومنيك سوردال" فهو يكتب في مطلع كتابه "تاريخ العرب":

En dépit des apparences, il n'est rien de plus malaisé à écrire que l'histoire des Arabes dans la mesure où ce dernier terme, aujourd'hui d'usage courant pour désigner un vaste ensemble de population arabophone, a recouvert dans le passé une réalité changeante et difficile à cerner.

وهو يقر هنا بصعوبة دراسة موضوع حول "تاريخ العرب" وذلك أن "مصطلح العرب إن دل اليوم عن مجموعة كبرى من ناطقي العربية فإنه دل في الماضي عن حقيقة متغيرة تصعب الإحاطة بها".

أما "فانسان مونتاي" فإنه يذكر بدوره مشاكل تحديد الفكر العربي للأسباب التي ذكرها "دومنيك سوردا"، مضيفاً إليها قضية أخرى وهي مسألة العرب الذين كتبوا بلغة أجنبية والذين يصعب التشكيك في هويتهم.

7. ومن الباحثين من يلجأ اليوم إلى عبارة "حضارة عربية إسلامية" وكأنه أراد التوفيق بين البعد اللغوي والبعد الديني.

غير أنه شاع عند بعض الغربيين المتطرفين عبارة: *arabo-musulman* ناعتين بها البلدان العربية والإسلامية وسكانها واضعين في سلة واحدة الأفغان، والإيرانيين، والمغاربة، واللبنانيين والمصريين، والعراقيين على اختلاف ألسنتهم ودياناتهم. وذلك دون أن ندري هل الرابط في العبارة السابقة هو "الواو" الجامعة منطقياً أم الأداة "أو" الإقصائية.

8. إبراز إثنية العلماء وأصلهم الديني أو العرقي، وذلك في أي موطن سكنوه واستعملوا لغته، ليس دافعه الدقة والأمانة فقط، وإنما القصد منه إما الافتخار بالشخصيات البارزة أو التقليل من أهمية الثقافة التي انتموا إليها. فالافتخار شيء طبيعي عند كل الأقاليم. فلا حرج أن يفخر المغاربة بـابن خلدون وابن معطي وابن أجيروم، ولا حرج أن يفخر الفرس بعلمائهم الذين برزوا إبان العصور الذهبية.

أما التقليل من أهمية الثقافة العربية الإسلامية فهو واضح لدى الفرنسي الذي يؤكد لك مثلاً أن "الكاشي" الذي عمم نظرية "فيثاغورس" هو فارسي. وبالنسبة لهذه النظرية لا يفوتنا أن نذكر أن الاعتراف بصاحبها جاء متأخراً. فكانت هذه النظرية التي تستعمل في كل الثانويات تسمى سابقاً

"نظرية جيب التمام" أو le théorème du cosinus ولم يذكر صاحبها إلا متأخراً. وهنا نرى أن الإخفاء أشنع من سوء التسمية.

9. تطورت دلالة العروبة، وابتعدت عن الانتماء العرقي وأصبحت تدل على الانتماء اللغوي وحده. وفي دراستنا للغة الضاد عبر العصور تجنبنا اللجوء إلى الإثنية وركزنا على اللغة وحدها، على نشأتها وتطورها ومساهماتها في العلوم والآداب دون أي تمييز بين من طوروها أو استعملوها في الوصف العلمي أو التعبير الأدبي. فلكلهم الفضل العظيم في نشأة هذه الحضارة العزيزة على كل من شعر بالانتماء إليها.

2. باب العربية وكتابتها

1. الفصحى بين المنطوق والمكتوب

2..بنية الكتابة العربية

3. قضايا الإملاء العربي

4. . قضايا القراءة والتشكيل

2. باب العربية وكتابتها

1. الفصحى بين المنطوق والمكتوب

1. من الصعب تحديد النشأة الفعلية للغة العربية. فما نعرفه عنها هو أنها لغة سامية، كانت مقسمة إلى لهجات درسها العديد من الباحثين مستعملين كلمة لغات. غير أننا لا نعرف إلا القليل عن هذه اللهجات وتمايزها. وما ذكر لنا هو في غالب الأحيان اختلاف في التأديت الصوتية أو في بعض التراكيب والمفردات، وذلك مثل تقسيم "لغة المسند" التي هي أصل من أصول الفصحى إلى لغتين: الأولى لغة السين التي تؤدّى فيها الهاء سينا في بعض الضمائر كأن يقولوا "مبانيسم" و"مقأمس" بدلا من مبانهم ومقأمه. والثانية هي لغة الهاء التي تؤدّى فيها الهمزة هاء في بداية الكلام.

جل هذه المعلومات مصدرها الآثار. ومن المعروف أن ما يرد في النقوش شيء ضئيل لا يستطيع أن يصف لغة، خصوصا عندما يسود الغموض الرسم وتطول الفترة الزمنية الفاصلة بين الآثار والناطقين.

2. أما الذي نعرفه عن لغة ما قبل الإسلام بصفة أكثر جلاء فهو أدها المتمثل أساسا في الشعر الجاهلي حيث نجد نصوص غزيرة بنيتها اللغوية متماسكة، موحّدة، ومعجمها متنوعا ولكن غير متناقض، وأوزانها خاضعة للقواعد العروضية التي نعرفها وقافية ميناها هو مبنى قافية اليوم.

غير أن هذا الشعر الجاهلي كان شفويا، تداولته الألسن. وقد قيل إن المعلقات كانت تكتب بماء الذهب ونحن لا نستغرب هذا لأن الكتابة العربية في رأينا أكثر استعمالا في العصور القديمة مما نتصوره. ولكن بقي في

الأذهان أن هذا الشعر لم يدون فعلا إلا بعد استقرار الكتابة وذلك في الفترة الواقعة ما بين القرنين الأول والثاني الهجريين. وهذا الفارق الزمني بين المنطوق والمكتوب قاد بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأن هذا الشعر منحول برمته وأنه كتب بعد الإسلام.

إن الاعتقاد بأن الزمن يمحو دوما الأدب الشفوي اعتقاد خاطئ وهو ناتج عن نكران الذاكرة الجماعية وجهل لوظائف الوزن. فالملاحظات الإغريقية بقيت شفوية لمدة قرون، والشعراء الشعبيون عندنا في الجزائر ما زالت تتداول الألسن قصائدهم كما كانت. والسبب في هذا راجع إلى الوزن، فهو الذي يثبت المنطوق. وأخ الوزن الغناء الذي يلعب أيضا دورا كبيرا في الحفاظ على الكلمات. فقصائد "ابن مسايب" و"ابن سهلة" و"ابن كريبو" وصلتنا بدون تحريف بواسطة الألمان. والنغم كما هو معروف يبقى حتى وإن لم يكتب.

أضف إلى هذا أن هذا الشعر ألفه أفراد ذكرهم التاريخ وتبين لنا أنهم عباقرة. فالشخص الذي يستطيع أن يقلد عنتره وامرؤ القيس وزهير والنابغة عليه أن يكون في مستواهم. وهذا ما يجعل فرضية كهذه خرافية.

3. أما انتحال بعض الشعر أي تحريفه ونسبه إلى غير قائله، فهو أمر لا يمكن نكرانه عند وجود الأدلة. وقد نهج هذا المنهج العلمي الدقيق القدماء مثل "ابن سلام الجمحي" "140هـ-232هـ" في كتابه "طبقات فحول الشعراء" حيث أرجع الظاهرة إلى عدة عوامل من بينها اعتزاز القبائل بشعرائهم، وقلة أمانة بعض الرواة. ولكن هذه الظاهرة التي يمكن وصفها بالسرقة الأدبية محدودة لا تخص معظم الشعر العربي ما سبق منه الإسلام وما تبعه.

4. لجأ بعض المستشرقين إلى فكرة "اللغة الجماعية" التي نعتها اليونانيون بـ"الكُوْنِيِي" Koïné وأرادوا تطبيقها على لغة نموذجية يتعامل بواسطتها الجميع كلغة "قريش". وهذا الموقف يحمل في طياته فكرة سلبية تلخص في مقولة واحدة:

مقولة: اللغة العربية الفصحى لغة اصطناعية لا علاقة لها باللغة المستعملة في الخطاب العفوي.

وزعموا أن شعراء الجاهلية نخبة كونوا هذه اللغة الجماعية حتى يفهمهم الجميع. وهو موقف يظهر لنا غريبا، لأن اللغات الاصطناعية كالإسبرنتو ألفها لغويون محنكون وهو شيء غير متوفر في زمان لم ينشأ فيه النحو.

البرهان الوحيد الذي قد يثبت الازدواجية اللغوية diglossie في ذلك العصر هو إبراز لغة المشافهة وإقرانها بالفصحى. ولكننا لا نعرف شيئا عن عامية ذلك الزمان. أما إسقاط حاضرنا على ماضينا فهو افتراض إيديولوجي هدفه الطعن في حيوية لغة الضاد.

وهناك بعد آخر هو البعد البلاغي. فلغة الشعر من هذه الناحية ليست لغة الكلام اليومي. ولكن الاختلاف واقع على مستوى الاستعمال لا على مستوى البنية. وهو شيء لم ينتبه له دوما الباحثون.

5. ما يثبت المنطوق شعرا ونثرا هو بدون منازع الكتابة.

والكتابة لا تكفي بتثبيت المنطوق، بل نراها تغير تماما وجه اللغة. وقد ذهب المفكر "جاك دريدا" في كتابه de la grammatologie إلى أن الكتابة ليست فقط تدوينا للمنطوق وإنما هي لغة في حد ذاتها، وهو يرفض الشائبة "أصل - فرع" السائدة في التفكير الغربي آنذاك. ونحن نجد في آرائه غلوا

لا نتبناه، وذلك أن المنطوق سابق للمكتوب وأن المقارنة بين الاثنين، منهجية يستعملها كل لساني.

ومهما يكن من أمر، فالكتابة طورت اللغة وجعلتها سببا في نشأة الحضارات الكبرى. فهي التي نقلت التواصل بالمنطوق الذي هو محدود من ناحية الزمان والمكان، إلى تواصل سمته الديمومة. وهو بعد لازم من ناحية تسيير الأوطان. فبدون كتابة لا تُسنّ القوانين ولا يحسب مال ولا تُجرى علاقات بين الشعوب.

6. الكتابة الأبجدية هي أساس معظم الكتابات الصوتية ويرجع اختراعها إلى الفينيقيين. تلك الكتابة استعملت اثنين وعشرين رمزا للدلالة على اثنين وعشرين صوتا، أي أنها تقابلية مبدئيا. ومن الجدير بالذكر أن الكتابة لا تدون التأدييات الصوتية وإنما الأصوات الوظيفية أو "الفونيمات" حسب مصطلحنا، فأنت مثلا لما تكتب كلمة "جبل" بالعربية فإن المدلول يبقى نفسه سواء نطقت جيمك بطريقة القاف القاهرية أو نطقها ياء أو أديتها مشبعة بدال: "دج" كما هو الشأن عندنا في العاصمة الجزائرية. وفي الفرنسية، الكلمة الخطية route أي الطريق، يتصدرها حرف الراء الذي ينطق بتأدييات مختلفة لا تغير أي منها مدلول الكلمة، فهي إذن تأدييات لفونيم واحد. وما هو صحيح بالنسبة للعربية والفرنسية، يبقى صحيحا بالنسبة لسائر الكتابات الصوتية، وقد اعتبر اللسانيون عن حق أن أول منظر للفونيم هو الكتابة.

والدافع لتدوين الفونيم هو اختزال الأصوات في أقل عدد ممكن وفي توحيد اللهجات. ويتبين لنا من خلال هذا أن للكتابة وظيفتين هما: استقرار اللغة وتوحيد الناطقين. وروى لنا "سبير" في هذا الشأن قصة طريفة تخص

طائفتين في يوغسلافيا القديمة، لكل منهما لغة تشبه الأخرى بحيث يسهل التفاهم بينهما. غير أن أسبابا عقائدية جعلتهما يرفضان التواصل. ولتكريس هذا الرفض اختارت إحداها الأبجدية اللاتينية والأخرى الأبجدية السيريلية المستعملة في روسيا وما جاورها.

7. الكتابة الفينيقية كانت تدون الصوامت وحدها وذلك أن الفينيقية لغة سامية مفرداتها مبنية على توزيع الحركات حول الهيكل الصامت. ونالت هذه الكتابة رواجاً كبيراً في البحر الأبيض المتوسط نتيجة بساطتها ونشاط أهلها في المجال التجاري. فأنحدرت عنها الكتابة الآرامية التي قادت إلى العربية، والكتابة اليونانية التي أنجبت الأبجدية السيريلية.

8. الكتابة العربية تنحدر حسب العديد من الباحثين من الكتابة النبطية التي من ميزات اتصال الحروف واختلاف شكلها حسب موقعها من الكلمة. ومن الباحثين من يرى أن كتابتنا لها علاقة بالخط الحميري أو "المسند". وهذه الكتابة كانت معروفة ومستعملة في القديم قبل ظهور الإسلام لتدوين العقود والمواثيق وكتابة الرسائل وربما لضبط الشعر. أما النقوش التي أثبتت وجود الخط العربي فهي متفاوتة في الزمن، بعضها يعود إلى القرن الرابع ميلادي وبعضها إلى السادس.

9. الشعوب متعلقة بكتاباتها مثلما هي متعلقة بلغاتها. وللتأكد من هذا يكفي أن نلاحظ أن الآسيويين لم يتخلوا عن أبجدياتهم المعقدة عندما نشأت الطباعة، ثم الآلات الراقنة والحواسيب، ووجدوا حلولاً لكل هذه القضايا. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الفرنسيين يملكون إملاء في غاية التعقيد وهم لا يستطيعون تغييره رغم نصائح اللسانيين واقتراحاتهم.

وفي العصر الحديث ظهرت عدة اقتراحات لتغيير الكتابة العربية بعضها خص شكل الحروف وبعضها خص إدراج الحركات بعد الصوامت. ولكن كل هذه الأبحاث باءت بالفشل. وقد ذكرنا في كتابنا "الخط العربي وقضايا الكتابة والقراءة" أن الحل الواقعي يقتضي احترام التراث والبحث عن سبل استعمال كتابتنا الوافية بحروفها وحركاتها، والعيب الوحيد في كتابتنا المشكّلة أنها شاملة، ثقيلة على الراقن لا على القارئ. وقد يأتي الحل من الإعلام الآلي، إن ثَمَّت مجهودات الباحثين في هذا المجال.

2. بنية الكتابة العربية

1. الكتابة التي تنعت بالصوتية مبنية على ربط المنطوق بالمكتوب انطلاقاً من المستوى الصوتي. وتختلف أنظمة الكتابات أو إملاؤها، من لغة إلى أخرى تبعاً لاختلاف الأنظمة الفونولوجية.

2. النظام الفونولوجي العربي مكون من:

أ. 25 صامتة هي حسب الترتيب الألفبائي: ء، ب ت ث ج ح خ د ذ ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه
ب. نصفي صامتين هما الواو والياء
ج. ثلاثة صوائت قصيرة هي الفتحة والضمّة والكسرة قد تكون في موضع القصر أو الطول.
مما يعطينا نظاماً إجمالياً مكوناً من 27 صامت أو نصف صامت وثلاث مصوتات.

أما الألف التي يعدها القدماء من بين الحروف فإنها في الحقيقة صائت ورمزها يدل على طول الفتحة .

وللتبسيط سنستعمل أحيانا مصطلح الحركة للدلالة على الصائت، والحرف للدلالة على الصامت، والصوت للدلالة على الفونيم.

3. الكتابة العربية القديمة كانت لا تستعمل التنقيط ولا الحركات وأبجديتها مكونة من:

سنة حروف في تقابل مع الصوامت هي: الهمزة والكاف واللام والميم والهاء والواو. وتسعة حروف يرمز كل واحد منهما إلى صوتين أو أكثر وتسمى المتشابهات. مما يعطينا عددا إجماليا يساوي 22 رمزا.

مما يجعل العلاقة بين الحروف الخطية والأصوات غير تقابلية. فمجموعات الحروف الآتية:

ب، ت، ث، ي، ن

ج، ح، خ

د، ذ

ر، ز

س، ش

ص، ض

ط، ظ

ع، غ

ف، ق

لا يميز بينها تنقيط في القديم. غير أن بعض الرموز الخطية متشابهة في كل مواقع الكلمة، وبعضها متشابه في بعض المواقع دون أخرى. ونرى أننا

أدخلنا في خطابنا مفهوم الكلمة مما يبين لنا أن الكتابة لا تقتصر على التعبير عن الأصوات ولكنها تعبر أيضا عن الكلمات. أي أنها تقلد اللغة في بنيتها الشائبة.

4. حتى نضبط التقابل بين المنطوق والمكتوب علينا أن نبرز علاقة

الشائبة "صوت، فونيم" بنظيرتها على مستوى الخط.

الخط يتغير حسب عناصر عدة نذكر منها:

أ. موقع الحرف الخطي من الكلمة.

ب. أسلوب الخط نفسه كالخط الكوفي أو خط الرقعة أو خط النسخ.

ج. أسلوب الخطاط. وذلك أن لكل فرد طريقته في تأدية الكتابة.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن تعدد الرمز الخطي لا يغير من طبيعته ولا من وظيفته الأساسية التي هي التعبير عن النطق. ولذا فإن هذه التأديت مترادفة وقد سماها منظرو الخط بالأموغراف Homographes ناحتين هذه الكلمة على منوال الألوفون Allophones أي الترادف الصوتي. وسموا Graphèmes مجموعة تأديت الخط مثلما سموا فونيم مجموعة التأديت الصوتية لوحدة أساسية ثابتة.

5. وقد نتساءل عن وظيفة اختلاف الشكل حسب موقعه من الكلمة

كالعين في "عرب وبعث وسمع"، ويتبين لنا بعد الدراسة أن الوظيفة الأساسية تحديدية démarcative. أي أن التنوع يدل هنا على بداية الكلمة الخطية أو نهايتها. شأنه شأن النبر الصوتي في اللغة الفرنسية الذي يأتي في نهاية الكلمات الصوتية أو النبر في اللغة التشيكية الذي يتصدر الكلمات.

6. من الشائع الاعتقاد أن الكتابة العربية كتابة متصلة الحروف. ومن المعلوم أن معظم اللغات تملك كتابة متصلة تستعمل عند الخط اليدوي وكتابة منفصلة تستعمل في النقوش قديما وفي الطباعة بعد نشأتها. ولكن كل رمز صوتي عربي لا يتصل دوما بغيره فالألف والذال والراء والزاي والواو لا تتصل بما يتبعها من حروف. ويرجع ربما هذا الاختلاف إلى تاريخ كتابتنا وعلاقتها بأصولها. أما تمايز الشكل في الناء التي قد تكون مربوطة أو منبسطة فوظيفته نحوية. وكذلك الشأن بالنسبة للألف المقصورة والممدودة التي حدد الفروق بينها العديد من النحويين.

7. من خلال ما درسناه نرى أن الكتابة العربية القديمة كتابة فونولوجية، أغلب حروفها متصلة، تحدد فيها الكلمات بواسطة تمايز حروفها مع ترك بياض بين الكلمات الخطية. ويبقى عيبها الظاهر هو هذا الترادف الخطي المفرط في غياب التنقيط والذي يؤثر على مقروئية النصوص حتى أنه يتبادر إلى أذهاننا هذا السؤال: كيف كان القدماء قادرين على القراءة؟ فندرس هذه القضية على مستوى الواقع، ولنأخذ مثلا النص الآتي: "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول" حاذفين منه النقاط.

في إطار صوري بحث ودون أخذ الحركات بعين الاعتبار. نرى أن كلمة "بانت" مبنية على الاحتمالات الآتية: الحرف الأول قد يكون باء وطاء وطاء ونونا والثالث له الاحتمالات نفسها أما الحرف الأخير فقد يكون باء وطاء وطاء مما يعطينا الاحتمالات الآتية: 3.4.4. أي 48 قراءة. وهو عدد كبير جدا بالنسبة لكلمة واحدة.

ولكن هذا الإحصاء الافتراضي يطبق على من لا يعرف شيئاً عن اللغة. وآليات تشفير الرموز مبنية على قراءة إجمالية تنظر للكلمة ككل بل وللکلمة وما جاورها. مما يوحي بأن كل الكتابات من ناحية تلقي الرسالة هي في الحقيقة كتابات دلالية.

فالقارئ القديم يستجد بالمعجم الذي هو ذهني آنذاك، ويلجأ عند الحاجة إلى نحوه الباطني.

في هذه الحالة عدد القراءات يختلف:

أ. كلمة "بانت" الخالية من التنقيط تصح قراءتها المعجمية: باتت، بانت، ثابت، ثابت نابت.

ب. كلمة "سعاد" لها قراءة واحدة فهي لا تستطيع أن تكون إحدى الكلمات: سعاد، سغاذ، سعاذ، شعاد، شغاد، شغاذ.
ج. الكلمة الخطية "وقلبي" لها قراءة واحدة فهي لا تستطيع أن تكون: وقلبي، وقلبي، وقلبي

ذ. الكلمة الثالثة لها أربع قراءات معجمية. اليوم، النوم، النوم، اليوم. غير أن النحو هو الذي يقود نحو الاختيار النهائي.
هـ. الكلمة الأخيرة من الشطر أي "مَتَّبُولٌ" تنقط حسب مقتضيات المعجم والنحو.

لقد اقتصرنا في تحليلنا على غياب التنقيط، ولم نتطرق للغموض الناتج عن غياب الحركات.

كل هذا يرينا أن قراءة النصوص القديمة ممكنة ولكنها تتطلب من القارئ كفاءة لغوية عالية.

8. وجب إذن على العرب تطوير كتابتهم. ومن المعروف أن الدافع الأساسي لهذا التطوير جاء من لزوم الحفاظ على النص القرآني وتجنب تحريفه.

في القرن الأول الهجري شرع أبو "الأسود الدؤلي" المتوفى سنة 69 هجرية في تطوير هذه الكتابة فوضع تنقيطا يميز بين المتشابهات ويربط المكتوب بالمنطوق. والجدير بالذكر أن باحثنا لم يغير جذريا من مبنى الكتابة وذلك ربما حفاظا على التقاليد أو على بنية العربية التي هي نصف صامتية. وقد اشتهر أيضا في هذا العلم الذي أصبح يسمى "علم الضبط" نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة 90 هجرية وهو من تلاميذ الدؤلي.

إلا أن النظام الذي اعتمد كان يستعمل الألوان للتمييز بين الحروف والحركات. وهو أمر استثقله الخطاطون والقراء. فجاء بعدهما "الخليل بن أحمد الفراهيدي" معوضا نقاط المصوتات بالرموز المعروفة وواها للغة شكلها المكتوب النهائي، مقابلا الفونيمات بالوحدات الخطية ومشيرا لعناصر النغم كالمد والتضعيف، ومضيفا رموزا أخرى دلالاتها متعلقة بالنحو والصرف.

9. لم تنته دراسة الخط مع الخليل ولكنها استمرت لمدة قرون. وممن

كتب في هذا المجال نذكر:

ابن قتيبة: "أدب الكاتب"

أبو القاسم الزجاجي: "كتاب الخط"

أبو بكر بن السراج: "كتاب الخط"

محمد عبد الله بن جعفر درستويه: "كتاب الكتاب"

أبو محمد البطليوسي: "الاقتصاد في شرح أدب الكتاب"
ابن الدهان النحوي: "باب من الهجاء"
جلال الدين السيوطي خص بابا للخط في كتابه: "همع الهوامع في شرح جمع الجوامع".
أبو عمر الداني: "المحكم في علم نقط المصاحف"
مجمد بن يوسف طشفين: "الرسم في تعليم الخط"
كما خصص معظم النحاة في كتبهم أبوابا لقضايا الكتابة، ونُظمت أراجيز في علم الخط أشهرها: منظومة "مورد الظمان في رسم أحرف القرآن" لمحمد بن محمد بن إبراهيم الشريشي الخراز.
وأصبحت هكذا دراسة الخط علما قائما بذاته، استعملت فيه منهجية مبنية على الاستدلال والقياس.

3. قضايا الإملاء العربي

1. استعمل العرب في القديم مصطلحات: الخط، الهجاء، الرسم، الكتابة، الضبط، للدلالة على القواعد التي تتحكم في بنية المكتوب. وشاعت مؤخرا كلمة إملاء للدلالة على مجموعة هذه القواعد.
ويقسم اليوم بعض المربين الإملاء إلى ثلاثة أقسام أساسية هي: الإملاء المنقول والإملاء المنظور والإملاء الاختباري أو السماعي.
ومهما تنوعت الدلالات فإننا، وللتبسيط، سنشير بكلمة إملاء إلى نظام الكتابة العربية.

2. يطلق الفرنسيون كلمة "أورتوغراف" orthographe على بنية الكتابة وكلمة "ديكتي" dictée على النشاط التربوي المعروف الذي يتمثل في كتابة المنطوق. ولكنهم يستعملون أيضا كلمة إملاء للدلالة على النظام، فهم يتكلمون عن "إملاء مريمي la dictée de Mérimée" مشيرين إلى نص جاء به هذا الكاتب وحمله صعوبات إملائية جمة.

3. التواصل بين أفراد أي مجموعة لغوية يتطلب حدا أدني من الاستقرار في البنية النحوية وفي معجمها، والشأن نفسه بالنسبة للكتابة. فعدم استقرار نظامها يؤدي حتما إلى عدم فهم المكتوب. والدليل على هذا الصعوبات التي يلاقيها الباحث عند تدوين الأدب الشعبي.

لنتأمل هذا الشطر لبيت مأخوذ من قصيدة للشاعر "بن كريو":

"راني من الأغواط ما ني شي منا"

معناه الفصيح هو:

"إني من الأغواط ولست من هنا"

من الواضح أن التدوين السابق قريب من "الأصل" الفصيح وهو قريب للمعنى، ولكنه لا يوحى بوزن البيت ولا يعبر عن لغته العامية. فهزمة "الأغواط" تسقط مع تحريك لام التعريف، ثم تدغم نون "من" في هذه اللام. والنفي "ما نيشي" يمكن التعبير عنه بعدة طرائق. أما الذي حدث للمركب "من هنا" فهو إسقاط الهاء وإدغام النون في مثلتها.

التقيد بهذه التحويلات الصوتية يقودنا إلى كتابة قريبة من التلفظ قد تكون كالآتي:

"راني مَلَّقُواطُ مَا نِشِي مَنَا"

وهذا التدوين لا يفهمه إلا أصحاب المنطقة.
أضف إلى هذا أن تشكيل النص لا يفي دائما بالغرض. فحركة الميم في
"منا" ليست كسرة أو فتحة، بل هي حركة مماله واقعة بين الاثنين.
عدم ضبط نص قصير كهذا بصفة أحادية راجع إلى سببين: بنية العامية
التي تغيرت وانعدام نظام كتابي يعبر عنها.
أما نصوص الرسائل القصيرة الواردة في الويب بالعامية، فالكمل يتعجب
من عشوائية كتاباتها وصعوبة فهمها.

4. لكل لغات العالم إملاء خاص بها. وهو خاضع لتقاليد تظهر أحيانا
منطقية وأحيانا اعتباطية.

لنتأمل الجمل الفرنسية الآتية:

Les livres que j'ai lus
Les chevaux que j'ai montés.
Les hommes que j'ai admirés.
Les femmes que j'ai aperçues

في الجملة الأولى علامة الجمع من ناحية الصوت تحملها أداة التعريف
وحدها ولكنها في المكتوب واردة في أكثر من مكان وكأنها من مجال اللغو.
ولكننا لو قارنا بين الجملة الأولى والثانية لرأينا أن الجمع في النطق معبر عنه
أيضا بواسطة الاسم، مما قاد واضعي الإملاء على إضافة حرف في الأخير
للدلالة عليه. أما الجملتان الثالثة والرابعة فالتقابل وارد فيهما بين المذكر
والمؤنث وهو بارز في المفعول به.

والإملاء الفرنسي عرف حقا طويلة من التغيرات وأتت الصعوبة فيه
جاء عوامل عدة من بينها:

أ. عدم التناظر بين الحروف الخطية والأصوات.

ب. تدخل المكتوب في قضايا المنطوق.

ج. التقييد بماضي اللغة وأصولها.

5. أما الإملاء العربي فإنه لم يعرف صعوبات نظيره الفرنسي، أو أنه حل

معظمها. وتبقى سلبياته واردة حسب البعض في:

أ. عدم تدوين الحركات عبر تسلسل المكتوب.

ب. إهمال الحركات في العديد من النصوص.

ج. عدم توفر كتابة ذات حروف منفصلة.

د. عدم وجود حروف خاصة تشير إلى أسماء الأعلام.

هذه القضايا التي تظهر لنا أحيانا ثانوية تبين لنا عدم وجود إملاء مثالي.

ولكنها تنبهنا أيضا إلى لزوم تطوير كتابتنا في إطار يحافظ على التراث.

6. إذا تعدينا قضية علاقة الحرف المنطوق بالحرف المكتوب فإننا

نجد أنفسنا أمام قضية ربط الكلمات الخطية بالكلمات اللغوية:

الكلمات الخطية تحدد في معظم الكتابات بواسطة بياض يترك بينها.

ويكون تعريفها كما يلي:

تعريف: الكلمات الخطية هي ما يوجد بين بياضين. أو بين بداية نص وبياض أو

بين بياض ونهاية نص.

ولكننا لو تأملنا أي نص مكتوب للاحظنا أن الكلمات الخطية لا تطابق

دوما كلمات النحو المنطوق. لنأخذ كمثال بيت ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

لو أحصينا كلماته الخطية لوجدناها عشرا. ولكن عدد الكلمات النحوية أكثر من هذا بكثير. ف "إني" كلمتان نحويتان و"ذكرتك" ثلاث و"بالزهراء" اثنان وما تصدره الواو اثنان بحيث أننا أمام 16 كلمة نحوية. هذا بالمفهوم القديم، أما بالمفهوم الحديث فعلى أن نعد الوحدات الدالة أو المرفيمات كالضمة في ذكرت الخاصة بالمخاطب والكسرة في كاف ذكرتك المتعلقة بالمؤنث وحركات الإعراب وأداة التعريف والتونين، مما يعطينا 27 مورفيما على الأقل. وهو ما يثبت لنا أن بنية نظام المكتوب تختلف تماما عن بنية نظام المنطوق.

7. إذا كان تعريف الكلمة الخطية بسيطا فتعريف الكلمة اللغوية ليس بالسهل. فالعرب كانت تطلق عبارة "كلمة" على القصيدة والخطبة فيقال: "ألقي فلان كلمة ترحاب بالضيوف". ولكن هذا الاستعمال مجازي فقط. أما في الاصطلاح فالكلمة هي ما دل على الوحدات الواقعة بين مستوى الأصوات ومستوى الجمل.

رُبط مفهوم "الكلمة" منذ البداية بأقسام الكلام الثلاثة التي هي: الاسم والفعل والحرف. وترك التعريف لحدس الناطق. ثم تتالت التعاريف الواردة عند النحاة، وذلك مثل:

"الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع" "ابن أجيروم"

كلامنا لفظ مفيد كاستقم "ابن مالك".

وتبين من خلال هذا أن الكلمة هي من مجال اللغة المنطوقة وأنها تحمل معنى.

ثم أضاف الشراح والمعلقون معلومات تخص هذا التعريف فقالوا:

"اللفظ هو كل ما يتلفظ به الإنسان كزيد أو مقلوبه ديز. أما الإفادة فهي التي تميز بين ما هو كلام وما هو غير ذلك. وأضاف البعض أن الكلمة هي: "ما لا يدل جزء منه على جزء من معناه".

وهذا التعريف يطابق تعريف اللسانيين للمرفيم الذي هو "أصغر وحدة دالة ينتهي إليها التقطيع". وخلاصة القول فإن مفهوم الكلمة عند العرب أقرب إلى المرفيم من معانيها في العرف الغربي.

8. استعمل مصطلح الكلمة عند الغربيين في مجالات عدة. أ. على المستوى الخطي الكلمة هي ما وقع بين بياضين كما عرفنا ذلك.

ب. على المستوى الصوتي هي ما يحسن السكوت بعده.
ج. على المستوى المعجمي هي كل ما ورد كمدخل في المعاجم. ولتفادي اللبس استعمل مصطلح "ليكسيم" lexème أي الوحدة المعجمية.
د. على المستوى الدلالي الكلمة هي ما حمل معنى مفردا. وكل هذا مكتنف بالغموض مما أجبر اللسانيين على استعمال مفهوم المرفيم الذي ذكرناه.

ولكن الكلمة بقيت مستعملة رغم تحفظ اللسانيين، وقاد هذا بعض الباحثين إلى تعريفها كمركب من المرفيمات خاضع لبعض المقاييس:
أ. الاستقلالية وهي الوجود وحدها في خطاب. فلو سألك أحد: "من قال هذا الكلام؟" بإمكانك أن تجيبه: "أنا" أو ربما: "أنت".

ج. حرية التنقل في الجملة.

د. عدم الفصل بينها وبين ما يجاورها.

هذه المقاييس تطبق بصفة جلية على الكتابة العربية. فالضمير المتصل سمي متصلا، لا لأنه يكتب متصلا مع سابقه في الخط، ولكنه متصل لغويا إذ لا يمكن إدخال أي عنصر بينه وبين ما سبقه. والجدير بالذكر أن العرب استعملوا حرية التنقل قائلين: "الضمير المتصل لا يمكن تقديمه على ما سبقه".

المتصل في الكتابة العربية هو إذن المتصل في اللغة. وقد شذت بعض الحالات. فالتراكيب: "في الدار، بالدار" متكافئة لغويا. إلا أنهم فصلوا في الأولى ولم يفصلوا في الثانية. وذلك أنهم نفرّوا من كتابة الحروف المنعزلة التي لا نراها ترد إلا في حالات خاصة مثل "ق" و "ف" وهما فعلا أمر من "وفي يفي" و "وقى يقي".

9. الإملاء العربي سهل إذا قسناه بالإملاء الفرنسي غير أن البعض اقترحوا تبسيطه وتقريبه من الكتابة الصوتية البحتة. وهذا أمر سلبى لأن الكتابة الصوتية تهمل وظائف نحوية كثيرة يؤديها الخط.

ونستدل على ذلك بحرفين كثيري الورد في النصوص وهما الألف واللام الدالان على التعريف. في الفقرة السابقة التي نعيد ذكرها:

"الإملاء العربي سهل إذا قسناه بالإملاء الفرنسي غير أن البعض اقترحوا تبسيطه وتقريبه من الكتابة الصوتية البحتة. وهذا أمر سلبى لأن الكتابة الصوتية تهمل وظائف نحوية كثيرة يؤديها الخط"

نرى الثنائية الخطية "الـ" قد وردت 11 مرة، نُطق فيها الألف في البداية فقط، أما اللام فإن نطقها غائب عند إدغامها في الصاد.

إثبات أداة التعريف خطياً برمتها، سواء نطق بها أم لم ينطق، تبرز مباشرة للعيون الأسماء داخل النص كما أنها تبرز علاقة النعت بالمنعوت والمضاف بالمضاف إليه.

إضافة إلى هذا، نرى في هذه الفقرة الدور الذي تؤديه التاء المربوطة في نهاية الكلمات.

أبواب الإملاء العربي معروفة، ونورد هنا على سبيل الذكر بعض عناوين الأبحاث التي قام بها القدماء.

أ. على المستوى الصوتي نجد ما يكتب ولا ينطق وما ينطق ولا يكتب. وقد علل المنظرون ذلك بكثرة التداول أو نفور الخطاطين من تراكم الحروف المتشابهة.

ب. على مستوى الوصل والفصل بين الكلمات درست بصفة خاصة: "ما" و"لا"، وحدد الاختيار على أساس الدلالة. أما وصل المرفيمات بصفة عامة فقد فصلنا فيه. ولكن كتب الإملاء تركت هذا لحديث القارئ.

ج. على مستوى نهايات الكلمات درست التاء وورودها مربوطة أو ممدودة. كما درست الألف ممدودة أو مقصورة.

أما الألف الفارقة التي لا ينطق بها فإنهم عللوا ورودها بتجنب اللبس ولزوم الفصل بين الكلمة والكلمة.

د. التمييز بين ألف القطع وألف الوصل مبني على التمييز بين همزة أصلية كتبت فوق الألف وهمزة إملائية مبنية على مبدأ عدم الابتداء بالساكن.

هـ. قضية كتابة الهمزة منبعا للوضع الخطي للهمزة التي لا توصل من أي الطرفين. فأنت لا تستطيع أن تكتب تسلسل السين والهمزة واللام هكذا: "س ء ل". ولذا فإنهم اختاروا أحد الروافد الثلاثة لها وهما الألف والواو والنبوة.

والاختيار مبني على تخفيف الهمزة، فبئر إن خففت تصبح "بير" والذئب "ذيب" والسؤال "سؤال". وكتابتها على شكل من الأشكال مبني على الملكة ولكن النحويين اخترعوا قواعد صورية مبنية على قوة الحركات. واتخذ مجمع اللغة العربية قرار تبسيط كتابة الهمزة، وذلك على أساس تفضيل النبوة. وهو مخالف أحيانا لقواعد تخفيفها.

وفي الأخير يتبين لنا أن قضايا الإملاء العربي محدودة إذا قسناها بأنظم كتابات أخرى. أضف إلى هذا أن البراهين على الاختيارات كثيرة مما يساعد على استيعاب القواعد. والإعلام الآلي كرس هذه السهولة عندما أنشئت برامج عدة ذات ثقة عالية.

4. قضايا القراءة والتشكيل

1. استقر نظام الكتابة العربية خلال القرنين الأول والثاني الهجري وسهّل التواصل بين الناس ولكن الاستعمال أبرز لنا توازي نظامين:
 - أ. نظام تام مكتمل يستعمل كل الضوابط سنسميه الكتابة الوافية.
 - ب. نظام مختصر خال من الضوابط التي ترافق الحروف كالحركات الثلاث والسكون والشدة والتنوين.وسمي المرور من النظام المختصر إلى النظام الوافي تشكيلا. ونعت النص الوافي بالنص المشكل.

لو حاولنا أن نحكي قصة هذه الازدواجية في الكتابة لرويناها كما يلي:
أ. عندما اكتملت الكتابة بوضع النقاط والحركات وكل الضوابط الأخرى وجد الخطاطون أنفسهم أمام نوعين من النصوص: النص القرآني الذي يستلزم تدوينا خاصا به، ونصوص أخرى جعلتهم مخيرين في استعمال أي من النظامين.

ب. الجهد في الخط مرتبط بطبيعة الحروف وتسلسل رسمها ولكن أيضا برفع القلم. وفي هذا الشأن أتذكر أن الفرنسية قد استعملت للدلالة على مفهوم "المثل" الكلمة الخطية *mesme* ثم حولوها إلى *même* عند غياب نطق الحرف *s*. غير أن الخطاطين بقوا لمدة طويلة يستعملون الكتابة القديمة بحجة أن "رفع القلم" يجهدهم.

إذا اعتبرنا أن رفع القلم يُعدّ من الجهد الخطي فلندرس وضع العربية من خلال مثال تجسده الجملة الآتية:

إن النساء يتشبهن بأنوثتهن.

لكتابة "إن" يرفع الخطاط قلمه أربع مرات. فهو يرسم ألفا دون همزة، ثم يرسم نونا، ثم نقطة فوق النون، ثم يرجع إلى الخلف لوضع الهمزة تحت الألف.

ولكتابة "النساء" سيرفع الخطاط القلم أربع مرات.

ويستمر هكذا رافعا قلمه عند انفصال الحروف أو عند وضع النقاط. الخطاطون تمسكوا تماما بالنقاط كلها حتى عند عدم لزومها كما هو الشأن في النون التي تنهي الكلمات. أي أن النقاط أصبحت من صلب الكلمة.

أما وضع الضوابط بعد كتابة الكلمات فإنه يمثل جهدا إضافيا لا ينكره أحد. ولكن الخطاطين اتبهاوا لكون وضع هذه الضوابط أمر غير لازم لفهم المكتوب. فكلمة "إن" في المثال السابق لا تستطيع أن تكون "إن" بإسكان النون و"النساء" لا تستطيع أن تكون النّساء بفتح النون أو النّساء بضمها. وهلم جرا.

أما القراء فمن الواضح أن الكتابة المشكّلة أريح لهم وأن غياب الشكل يتطلب منهم جهدا متعلقا بكفاءتهم.

ولذا فإنه بإمكاننا القول:

"إن الكتابة الخالية من الضوابط تُكوّن نوعا من الاتفاق الضمني بين الخطاط والقارئ".

أضف إلى هذا أن القراء المتمرسين كانت تحرجهم الرسائل المشكّلة لأنها تمثل تشكيكا في كفاءتهم اللغوية.

أما اليوم ففضية تنقيط الحروف لا تطرح بالنسبة للآلة الكاتبة ولكن الكل يعرف الجهد المبذول لوضع كل ضوابط النص خصوصا عند عدم لزومها. وهو ما يفسر إهمالها في معظم الحالات.

2. هذا بالنسبة للمرسل وهو الخطاط والمرسل إليه وهو القارئ. أما الرسالة وتشكيلها فهذا أمر يتطلب دراسة معمقة.

أ. إذا كانت الكتابة هي إقران المكتوب بالمنطوق فالذي يتبادر للأذهان هو إحصاء إمكانيات إرفاق الحروف بالحركات وكل الضوابط. ففي كلمة " مركبة" مثلا، تشكل الميم بالفتحة أو الضمة أو الكسرة والراء بالحركات الثلاث أو السكون أو بالحركات مع الشدة. وهلم جرا. ويصبح هكذا عدد الإمكانيات خياليا. مما يفسر استحالة القراءة المجردة لمن لا يعرف من العربية إلا أصواتها.

أما القارئ الذي يتعامل مع النصوص الخالية من الضوابط فإنه قد مر بمراحل التعليم الأولى، وهو لا يقرأ النصوص حرفا حرفا وإنما كلمة كلمة أو حتى جملة جملة مستعينا بكل عناصر اللغة: الإملاء، والمعجم والصرف والنحو والدلالة. وذلك قصد الفهم لأن الفهم هو الغرض النهائي من الكتابة والقراءة.

ونتيجة لهذا فإن كلمتنا السابقة الذكر: "مركبة" لها من ناحية المعجم ثلاث قراءات:

مَرْكَبَةٌ، مُرْكَبَةٌ، مُرْكَبَةٌ.

أما في الجملة:

انطلقت مَرْكَبَةٌ الفضاء.

فالقراءة واحدة.

3. لوضوح البحث يتحتم علينا دراسة قضية التشكيل تدريجيا على مستوى المعجم ثم على مستوى التراكيب والدلالة.

أ. في كل اللغات توجد مترادفات ومتجانسات. فالترادف *synonymie* هو الاختلاف في اللفظ والاتحاد في المعنى أما التجانس *homonymie* فهو الاتحاد في اللفظ والاختلاف في المعنى. والمعجم يميز بين المترادفات والمتجانسات بواسطة التعريف ولكن أيضا بواسطة الأمثلة التي تحدد سياق الاستعمال.

وعدم التقابل الشائبي بين اللفظ والمعنى من القضايا التي تطرح على المجال اللغوي والحاسوبي في كل اللغات. فكلمة *porte* الفرنسية قد تشير إلى اسم الباب وقد تكون الفعل رفع *porter* الدال على الغائب المفرد. ويحدد بينهما السياق غالبا.

ب. قضية تعدد المعاني للفظ الواحد موجودة في العربية. ولكن "الكتابة المجردة من الضوابط" تضيف تجانسا آخر غير التجانس اللغوي..

وسنضع لهذا الغرض التعاريف الآتية:

تعريف 1: التجانس الخطي هو كل ثنائية من الكلمات مشتركة في الخط المجرد ومختلفة من ناحية التشكيل.

تعريف 2: كل كلمة مشكّلة تسمى قراءة لكلمة مجردة.

تعريف 3: كل قراءة تهمل حركات الإعراب تسمى قراءة معجمية.

تعريف 4: كل قراءة لا تهمل حركات الإعراب تسمى قراءة وافية.

وسنقسم دراستنا إلى قسمين: قسم يخص الكلمة خارج مجال علامات الإعراب وقسم يخصها في إطار شامل. وذلك لخصوصيات الإعراب.

4. على مستوى انتماء الكلمات إلى أقسام الكلام يمكن تصنيف التجانس الخطي كما يلي:

أ. التجانس بين كلمتين من صنف واحد كتجانس الأسماء مع الأسماء والأفعال مع الأفعال والحروف مع الحروف.

ب. تجانس كلمتين من صنفين مختلفين كتجانس الاسم مع الفعل أو الحرف وتجانس الفعل مع الحرف.

وقد أحصينا بعض التجانسات مثل:

أ. تجانس الأسماء التي تفصل بينها حركة واحدة مثل: الجَدَّ والجِدِّ والجُدِّ.

ب. تجانس الضمائر المتصلة مثل الكاف في الكلمات الخطية: كتابك وكتابك، سمعتك سمعتك سمعتك.

ج. التجانس الذي يخص اسم الفاعل واسم المفعول مثل مستعمل ومستعمل.

د. تجانس الأفعال المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول مثل سَمِعَ وسَمِعَ. وتجانسها عند الاختلاف في الزمن أو الصيغة وذلك مثل: قَلَّ وقُلِّ، هَمَّ وهُمِّ، عَدَّ وعُدِّ، سَدَّ وسُدِّ.

هـ. تجانس حروف المعاني مثل لام الجر المكسورة ولام القسم المفتوحة.

و. تجانس الفعل الثلاثي مع المصدر: ضَرَبَ وضَرَبَ، سَمِعَ وسَمِعَ، نَشَرَ ونَشَرَ.

القائمة طويلة وهي قابلة للبحث والإحصاءها.

كما أنه يمكن تصنيف الكلمات من حيث عدد قراءاتها:

أ. فمن الكلمات ما اختص بقراءة واحدة خارج الإعراب نجد: جاء وجاءت وجاءوا وجئن وبدا وعدا والفتى والكرى والقنا.

ب. ومن الكلمات ما يملك قراءة واحدة على المستوى الإفرادي وقراءات مختلفة على مستوى الإعراب نجد: نسر وتوبة وسفرجل ومجاهد وتكاليف وحياة، وابن، وأخ.

ج. وهناك من الكلمات ما له قراءات عدة على جميع المستويات. وسنسمي هذا الكلمات التي تقبل أكثر من قراءة "المتشابهات اللفظية" كما سمي الأسلاف بتشابهات ما اشترك من الحروف جراء عدم التنقيط، مع العلم أن المتشابهات في الحروف محدودة ومتشابهات الألفاظ لا تكاد تحصى.

5. من الواضح أن إحصاء عدد القراءات في النصوص هو الذي يحدد النسبة الحقيقية للغموض. وهذه النصوص تنقسم اليوم إلى ثلاثة أقسام: أ. نصوص تشكل دوما كالنص القرآني والشعر القديم وبعض النثر الفني كالمقامات وكتب الأطفال.

ب. نصوص أدبية أو علمية تتطلب تشكيل بعض كلماتها.

ج. نصوص بسيطة كالتى ترد في الجرائد وكتب الطبخ وهي لا تشكل إلا عند الضرورة.

أ. أما القراء فملكاتهم متميزة ويمكن توزيعهم حسب ثلاث مستويات:
أ. مستوى القارئ الذى بدأ يتعلم القراءة والكتابة وهو فى حاجة إلى تشكيل كامل للنصوص.

ب. مستوى القارئ ذى الملكة المتوسطة وهو الذى تسهل عليه قراءة الجرائد وتصبح عليه قراءة النصوص الأدبية.

ج. مستوى القارئ المتدرب القادر على منح معظم النصوص أشكالها النامية.

6. النصوص التى تقع فى المستوى المتوسط بين السهولة والصعوبة هي التى تعطينا فكرة واقعية عن مدى غموض النصوص العارية من التشكيل. وقد اخترنا لهذا الشأن نصا قصيرا مكونا من مائة كلمة مأخوذا من كتاب حياتي لأحمد أمين طبعة المكتبة العصرية صفحة 107.

"أما المكتبة الإنجليزية فمكتبة مرتبة منظمة صاحبها كنا نسميه الأستاذ "فرج" ليس فيها موضع للجلوس ولا قهوة ولا تدخين، ولا حديث لصاحبها... وتلذذت من زيارتها."

هذا النص مكون تقريبا من مائة كلمة حددنا الكلمات الخطية التى لها قراءة واحدة دون احتساب عدد الورود. وصنفناها إلى ثلاثة أصناف: صنف الوحدات النحوية وصنف الأسماء وصنف الأفعال وكل ما ارتبط بها من سوابق ولواحق:

أ. صنف الوحدات المعجمية أعطانا الكلمات الآتية: ما، أما، كما، في، فيها، منها، لي، لا، أو، هذا، هكذا، إذا، عن، كذا، في، لك، من، فيها، منها، قد.

ب. صنف الأسماء أعطانا الكلمات الخطية: المكتبة، صاحبها، الأستاذ، لجلوس، قهوة، حديث، لصاحبها، موضوع، وثمان، مكان، لعلم، يميناً، يسار.

ج. صنف الأفعال أعطانا الكلمات الخطية: نسميه، يباع، اتجه، نظر، ومد، قال، أزورها، فأمضي، أتصفح، وأشتري.

كل هذه الكلمات ذات قراءة واحدة وهي لا تتطلب تشكيلاً.

أما المتشابهات فإنها نادرة، نذكر منها: "اشترت" و"عشقت" التي قراءتها مرتبطة بالضمير المتصل و"يدفع" و"يصفف" التي قد تكون مبنية للمجهول، غير أن السياق حدد هنا بسهولة الاختيار المناسب.

ونرى من خلال هذا النص أن غموض الكتابة المجردة من الضوابط أمر مبالغ فيه، ويمكن للباحثين أن يحددوا نسبة ورود الكلمات المتشابهة في الشعر القديم والحديث حتى يعطونا فكرة واضحة عن درجة هذا الغموض.

كما أن دراسة المتشابهات في المعجم وإحصائها من البحوث التي تكمل دراسة النصوص.

7. لاحظ المختصون بعلم الخط الحديث أن القارئ الصامت لا يقتصر على الكلمات عند التفسير. فهو ينتقل بطريقة متقطعة وسريعة من كلمة لأخرى بل من ثنائية من الكلمات إلى أخرى. أي من مركب من الكلمات لآخر.

والعرب سميت "مُرْكَبًا" كل قول "مؤلف من كلمتين أو أكثر لفائدة قد تكون تامة أو جزئية". وحددوا ستة أنواع من المركبات:

المركب الإسنادي والإضافي والبياني والعطفي والمزجي والعددي.

أما الغريون فإنهم سمووا syntagme ما ورد في مجال واقع بين مستوى الكلمة ومستوى الجملة مشتملا على جزء من المعنى قد يكون مرتبطا بالاسم أو الفعل أو بعض الحروف.

ولكنه علينا أن ننتبه لكون "المركب" مفهوم لغوي من اللازم تحويله إلى مفهوم خاص بالمكتوب.

ولذا فإننا سنسمي "مركبا خطيا" كل ثنائية أو ثلاثية من الكلمات تساعد على التشفير أو التقليل من التشابه سواء كان لفظيا أو دلاليا.

أ. المركب الإسنادي يظهر لأول وهلة عندما يكون التركيب قصيرا. وقد يخص هذا التركيب كلمتين منفصلتين مثل: "الحرب خداع" و "طلع البدر" وقد يقتصر على كلمة خطية مثل: "خرجت وسمعتك". التي تحتوي على الضمير.

ب. المركب الإضافي الذي يسمى في النحو الغربي "مكمل الاسم أو مفعوله" complément de nom كثير الورد في النصوص. وجمل مثل:

"تكاليف الحياة" تتعب الإنسان

يا "نجمة الصبح" ما أحلى محياك

ترينا أهميته في تشكيل أواخر الكلم.

د. أما التركيب البياني "اسم صفة" كما في:

جاء "التلميذ الذكي"

رأيت "تلميذا ذكيا"

رأيت "تلميذة ذكية"

مررت "بتلميذ ذكي"

فهو تابع للقاعدة المشهورة التي مفادها أن النعت يتبع المنعوت في التذكير والتأنيث والإعراب والتعريف. وهو أيضا مجال يتجلى فيه الإعراب. هـ. المركب العطفى قد يجمع بين اسمين أو فعلين أو غير ذلك والأمثلة التي تظهر مساعدته على القراءة كثيرة.

إذا اتبعنا مفهوم المركبات المباشرة التي نجدها في اللسانيات الحديثة فإنه بإمكاننا أن ندرس المركب: "محدد + اسم". الذي يتجلى في المركب "أداة تعريف + اسم". وهذه الثنائية تزيل الكثير من الغموض. ف"سمع وحكم وشرب وركب" التي كانت تقرأ كأسماء أو أفعال تصبح عند دخول أداة التعريف عليها أسماء لها قراءة إفرادية واحدة: السمع والحكم والشرب والركب.

ب. من الوحدات التي تحدد الفعل نجد حروف المضارعة وسين الاستقبال، وسوف، وبعض الضمائر المتصلة، وحروف النفي كلم ولن، ونون النسوة، وواو الجماعة، وغير ذلك مما يحيط بالفعل.

ج. من المركبات الكثيرة الورد نجد "الجار والمجرور" سواء كانت متصلة أو منفصلة في الخط.

وكل هذا يقودنا إلى مفهوم الإعراب.

8. الإعراب له معنى عام هو دراسة الوظائف اللغوية، ومعنى خاص متعلق بما يلحق أو آخر الكلمات. وله بنية مجردة أو عميقة تسمى الرفع والنصب والجر والحزم وتحقيقات بواسطة الحركات أو الحروف. والإعراب

مرتبط بالوظائف النحوية كالفاعل الذي هو مرفوع والمفعول به الذي هو منصوب والمضاف إليه الذي هو مجرور والفعل المضارع الذي ينصب تبعاً لبعض العوامل ويجزم تبعاً لآخرى.

والجدير بالذكر هو أن التقابل بين الوظيفة ومحل الإعراب ليس أحادياً

كما يتبين من المخطط الآتي:

اسم مرفوع ← مبتدأ

اسم مرفوع ← خبر

اسم مرفوع ← فاعل

اسم مرفوع ← نائب فاعل

إلى آخره.

ولو أردنا البحث عن عكس هذه العلاقة فإننا لن نستطيع وجودها. فالأسبقية تكون دائماً للوظيفة، ويتجلى هذا في قولنا مثلاً: "فاعل

مرفوع" بدلاً من "مرفوع فاعل"

مما يعطينا المخطط:

الوظيفة ← الوضع الإعرابي ← التحقيق

إن الإعراب قد يتجلى في آخر "الكلمة اللغوية" أما في الكلمة

الخطية، فالأمور تختلف تماماً.

قد تظهر حركة الإعراب في آخر الكلمة مثل:

أعجبنى الكتابُ وقرأت الكتابَ وسهرت مع الكتابِ.

ينزلُ المطرُ، لن ينزلَ المطرُ لم ينزلَ المطرُ.

وقد لا تأتي حركة الإعراب في آخر الكلمة الخطية وذلك مثل:

أعجبنى كتابه ، قرأت كتابه ، تحصلت على كتابه.

الكلام الذي أسمعُه، الكلام الذي لا أريد أن أسمعُه، الكلام الذي لم أسمعُه.
وقد يمنع من ظهور الحركات مانع مثل:
جاء الفتى ورأيت الفتى ومررت بالفتى
ودراسة قضية التشكيل الخاص بالإعراب يلزمها أن تدرس من خلال
النصوص. ففي الشطر الآتي:

"كل ابن أنثى وإن طالت سلامته..."

نرى أن التشكيل الإعرابي خص ثلاث كلمات هي: "كل" و"ابن"
و"سلامته" وذلك من بين ست كلمات خطية.
ولتحديد النسب الحقيقية أو التي تقارب الحقيقة يمكن إجراء عمليات
مماثلة على مدونات كبيرة كالمعلقات أو ديوان شعر أو رواية بأكملها أو
جريدة مع مختلف مواضيعها.

إن تحديد حركات الإعراب من طرف القارئ ليس سهلا ولكن من
حسن حظ لغتنا أن علامات الإعراب لا تمنع الفهم، فهي تأكيدية ومن
مجال الحشو كما بينا ذلك. والدليل على هذا أن الذين يستعملون الوقف
بكثرة تبعا للمقولة: "اجزم تسلم" يؤدون خطابا دون تحريف لمقاصدهم. كما
أن الترجمة الآلية تستعمل التشكيل وقد تخطئ في علامات الإعراب دون أن
يكون لهذا أثر على تأدية المعنى في اللغة الثانية.

9. قضية الكتابة العربية ليست قضية إملاء، والدليل على هذا هو فشل
كل المحاولات التي أرادت تغيير رسمها. وإنما القضية مرتبطة بالقراءة
والتشكيل. ولهذه القضية حلول نذكر منها:

أ. إهمال ضابط من الضوابط. وقد بينا في كتابنا "قضايا الخط العربي" أن الاستغناء عن الفتحة وحدها يمكن من اختصار أكثر من نصف الضوابط.
 ب. تشكيل بعض المتشابهات وذلك اعتماداً على الإحصاء. فيشكل المبني للمجهول بدلاً من المبني للمعلوم، ويشكل الفعل "كل" لأنه أقل وروداً من "كُل"، ويضبط ما هو نادر وغير مألوف من الألفاظ. كما تشكل الأعلام والكلمات الأجنبية والكلمات التقنية، وكل ما يؤدي إلى اللبس.
 ج. اللجوء إلى الإعلام الآلي يمثل اختياراً جديداً. وقد ظهرت خلال العشرية الأخيرة برامج موضوعها التشكيل النصوص المجردة. ولكنها مع الأسف كثيرة الأخطاء.

هذه بعض الجمل التي عرضناها على بعض هذه البرامج:

رأيتك خارجا

رأيتك خارجة

كتابك مفيد

كتابك مفيد يا فتاة

فجاءتنا نتائج، بعضها غريب:

رأيتك خارجا

رأيتك خارجة

كتابك مفيد

كتابك مفيد يا فتاة

ويظهر من خلال هذه الأمثلة أن تلك البرامج إن نجحت بعض النجاح على المستوى الإفرادي فهي غير قادرة على تناول قضايا الإعراب.

ويستعمل اليوم بكثرة الذكاء الاصطناعي المبني على التعلم من خلال النصوص. ولكن كيف يمكن للحاسوب أن يتعلم التشكيل وكل نصوصنا مجردة من الضوابط؟ لن يحدث هذا إلا إذا جند مئات النحاة لتشكيل ملايين النصوص تعرض على الآلة حتى تتعلم!

3. باب العربية وعلومها

1. النحو وترسيخ بنية اللّغة

2.. اللّغة والمعجم

3. التعريف وأسس

3. باب العربية وعلومها

1. النحو وترسيخ بنية اللغة

1. لا يمكننا في هذا البحث القصير الإحاطة بعلم النحو القديم كله ولا تقييمه ولا ربطه بعلم اللسانيات الحديث، وإنما قصدنا هنا هو إبراز بعض مظاهره المتعلقة بالمجتمع والأدب والحضارة.

من المعروف أن الحضارات الكبرى اهتمت بلغاتها وحاولت ترسيخها بطرائق عدة كالكتابة والأدب ونمذجة الكلام. و"نمذجة الكلام" هو ما سماه العرب "النحو"، وقد رأينا في دراسة سابقة كيف طال ظهور هذا العلم عند اليونانيين ولم يصل إلى الشكل الذي نعرفه اليوم إلا مع مؤلفات "أبولونيوس دي سكول" Appolonios Dyscole الملقب بأبولونيوس النحوي، وذلك في القرن الثاني الميلادي. ويقال عن هذا العلم أنه وصل العرب عن طريق ترجمة كتب "أبوليونس" إلى اللغة السورية القديمة. ليست لنا أدلة تاريخية عن هذا، وإنما البراهين الوحيدة التي يمكن تقديمها تتمثل في مقارنة نحونا بالنحو اليوناني.

ما اتفق بين النحويين على مستوى النموذج هو تقسيم الكلام إلى أجزائه الثلاثة: الاسم والفعل والحرف، وعلى مستوى المنهجية استعمال القياس والمنطق عند الاستدلال.

2. نعرف أن العرب أخذوا من اليونانيين الحساب والهندسة واعترفوا بذلك. ويرجع هذا التأثير لكون الرياضيات لغة عالمية لا ترتبط باللغة التي تعرض فيها المفاهيم. أما النحو وقواعده فهو متعلق تعلقا وطيدا باللغة التي

هي موضوع الدراسة. فالعربية واليونانية متشابهتان في عدة مجالات كالصوتيات والعروض، واستعمال الإعراب، والمثنى، ولكن الاختلاف بينهما أكثر من الاتفاق، إذ اليونانية لغة تنحدر من السنسكريتية بينما العربية لغة سامية. ولهذا السبب نستبعد انحدار نحونا من اليونانية كما هو الشأن في اللغات الرومانية.

3. يقال إن علم النحو نشأ مع أبي الأسود الدؤلي وكان الدافع لذلك حماية العربية من التشويه والفساد. غير أن النحو بلغ أوجه بسرعة بعد الدؤلي وذلك مع الخليل بن أحمد وتلاميذه. ولا أعتقد أن الحفاظ على الفصحى هو الحافز الوحيد بالنسبة للفراهيدي. ولو كان الأمر كذلك لما رأيناه يبحر في علوم شتى كالصوتيات، والإيقاع، والعروض، والمعجم مستعملا منهجا صوريا مبنيًا على الاحتمالات والمنطق. وإنما الدافع الأكبر في اعتقادي، ثقافي. لقد أصبح المجتمع منذ القرن الأول الهجري مهتما بالعلوم والعلماء، مولعا بأهل النبوغ. وكل باحث حقيقي يدرك هذا التعلق بالعلم وهو تعلق لا أبالغ إن شبهته بتعلق الحبيب بالحببية.

4. مهما يكن من أمر فحماية اللغة من الانقراض ليس دافعا سلبيا فهو الذي وهب للعالم العربي الإسلامي لغة ثابتة مستقرة قد نسميها اليوم لغة وطنية. ونحن نعي أهميتها في توحيد الشعوب والأوطان ودورها في التواصل ونقل العلوم وترسيخ العقائد.

وهناك دافع آخر خص الباحثين في النحو وهو حبهم للغة وافتنانهم بها، وإلا فكيف يمكننا تفسير هذا الكم الهائل من النحاة الذين تعاقبوا عبر الأجيال وفي كل بقاع هذا العالم الشاسع وذلك منذ أبي الأسود في القرن

الأول الهجري حتى الزمخشري وابن هشام الأنصاري وابن معطي وابن مالك وابن أجيروم؟

5. من الشبهات التي تحوم حول النحو العربي هو أنه أهمل لغة زمانه ولم يهتم إلا بلغة نمطية. نعم إنه أخذ مدونته من الكلام الوارد في النص القرآني وفي الشعر ولكنه لم يكتف بهذا، فالكل يعرف أنه بحث عن الفصح عند الناطقين في المدن ثم في البوادي وأنه لم يبلغ الاهتمام بالللهجات.

التقيد بمستوى معين من الكلام وحصر الدراسة فيه، شيء طبيعي. فمن طبيعة المدونات أن تكون محدودة، واضحة الملامح منجانسة. وحتى اللسانيات التي ترفض المعيارية فإننا نراها متقيدة بصفات المدونات المذكورة.

6. للغة قبل نشأة نحو النحاة، نظامها الباطني الذي يتبعه الناطقون، فهم يستعملون الأصوات والمفردات والتراكيب السائدة عند الجماعة، وذلك بطريقة عفوية. ولكن هذا النحو الباطني كيف يمكن أن نصل إليه دون تنظير؟ يستعمل شعراء الملحون في الجنوب عندنا، بحرا يسمونه "العُشْرِي" مبنيا على عشرة مقاطع قي الشطر وهم يجهلون كل شيء عن المقطع. ولكن الباحث عند تنظيره يرى نفسه مضطرا إلى إبراز مفاهيم الحرف والحركة والمقاطع وتصنيفها..

كذلك الشأن بالنسبة لعلم النحو الذي يطمح إلى محاكاة النحو الباطني عند ناظقي لسان ما. أما مدى نجاح هذا التقليد فإننا لا نستطيع في يومنا الحالي تقييمه. وقضية تعبير النحو العربي على لغة الضاد تعبيرا صادقا،

وفيا، يبقى نقطة استفهام. ونقطة الاستفهام ترافق أيضا اللسانيات الحديثة، فاختلاف مدارسها لدليل قاطع على عدم مسايرة النماذج الموضوعية لنظام الناطقين.

7. لو حاولنا أن نرى كيف يُنظَر الكلام، والكلام هنا بالمعنى اللساني، لرأينا أن أبسط الطرق تتمثل في التصنيف. وذلك أن الكلام إن كان منتهيا بالنسبة للأصوات وقابلا للعد بالنسبة للمفردات التي قد تسعها المعاجم، فالجمل والنصوص لا تحصى ولا تعد ولا تستطيع كل كتب الدنيا أن تستوعبها.

والتصنيف مبني على التشابه أو التكافؤ، ووضع ما هو متكافئ في مجموعة واحدة، وهي تقنية نجدها عند الرياضيين الذين يصنفون الأعداد والعلاقات والدوال والمعادلات إلى أصناف تمكنهم من حل قضاياهم. والتصنيف يقتضي تسمية الأصناف وفي هذا المضمار، فإن نحاتنا نجحوا نجاحا كبيرا. فمعاجم النحو تزخر بهذه المصطلحات التي يتعلمها الطفل من الصغر انطلاقا من مفهوم الحرف إلى مفهوم الكلمة إلى الاسم والفعل والحرف والفاعل والمفعول والحال والمبتدأ والخبر، والمضاف والمضاف إليه، والنعت والمنعوت.

هذه التسميات جاءت من الكلام العادي ومنحت لها دلالات خاصة أو اصطلاحية مما سهل حفظها. أما الصرف الذي كثرت أوزانه فإنهم استعملوا طريقة طريفة لدراسته وهي التصنيف بواسطة ممثلين للأوزان كَفَعَلَ وفَعَلَ وانفعل وافتعل واستفعل. والجدير بالملاحظة هو أن هذه الأوزان مجسدة في المنطوق أكثر مما هي مجسدة في المكتوب.

8. بالنسبة لوصف اللغة فالنحو العربي يمتاز بشموليته.

أ. لقد وصف النحو الأصوات كلها ولم يستثن منها الحروف التي قيل إنها ثانوية. والوصف في هذا المستوى لم يكن صوتياً بحتاً وإنما كان فونولوجياً ولم يذكر النحاة مفهوم الفونيم ولم ينظروه، وأظن أنهم كانوا قريبين من ذلك لو استمرت الحضارة في تألقها ولم تنكسر وتتجه نحو الانحطاط. والمتمتعن في تاريخ النحو ومحتواه يدرك أنه بلغ ذروته بسرعة، ثم اكتفى بتكرار ما جاء به الأسلاف وذلك كالدالة المتزايدة حتى ذروة منحناها ثم المتناقصة بعد هذا.

ب. أما على مستوى الوحدات الدالة فإننا بينا أن مفهوم الكلمة يطابق عند نحائنا مفهوم المرفيم الحديث. وقد سهل هذا عليهم العمل على جل المستويات، وبالأخص على المستوى الصرفي الذي وصفوه بطريقة واضحة جلية لا نرى اليوم كيف يمكن تغييرها أو تعويضها بما هو أعم وأبسط.

ج. بالنسبة لعلم التراكيب نرى نحائنا قد أعطوا أهمية بالغة للإعراب وجعلوه أحياناً سابقاً للوظائف. ولكن هذا النقد لا يستطيع أن يكون موضوعياً إلا إذا أبرزنا البديل. وعلماء اللغة اليوم غير قادرين على هذا.

أما تعقيد النحو فهو ليس ناتجاً عن النحو وإنما هو ناتج عن ثراء اللغة نفسها. ولفهم النحو كما لفهم اللغات مستويات. وقد أدرك المربون ذلك إذ القواعد تبدأ عند المتعلمين مبسطة لتزداد في الشراء. وتبقى القضايا الشائكة من مجال المختصين، وهو أمر يخص كل العلوم.

9. هل للنحو مستقبل مع بروز وسائل جديدة للتواصل؟ إنا نراه اليوم حاضرا في كل اللغات، ولزومه في العربية أكثر من غيره. وإن لم يستطع النحو منع بروز عاميات تصرفت في العربية تصرفا أخرجها ربما عن الفصاحة، ولكن لم يخرجها عن انتمائها إلى لغة الضاد، فإن النحو يبقى الطريق الأنجع لفهم آليات الفصحى ولاستعمالها في المكتوب وبعض المنطوق.

2. اللّغة والمعجم

1. يوجد في اللسانيات مفهوم بسيط يصنّف الوحدات الدالة أو الكلمات إلى صنفين:

أ. الوحدات النحوية التي تكون مجموعة مغلقة، محدودة العدد، ثابتة.
ب. الوحدات المعجمية التي تكون مجموعة مفتوحة تتغير عبر الزمن.
في العربية الوحدات النحوية هي حروف المعاني، وأسماء الإشارة، والاسم الموصول، والضمائر، وأداة التعريف، وعلامات الإعراب، والأفعال الناقصة، والحروف المشبهة بالأفعال، وغيرها مما هو من صلب النظام.
كل هذه الوحدات مذكورة بنفسها ومدروسة دراسة وافية من حيث الموقع في الجملة، والوظيفة، والدلالة. أما الوحدات المعجمية فهي لا تظهر، إن وردت، إلا في الأمثلة.

2. في البيت الآتي لأحمد شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

يمكن للقارئ أن يحدد بسهولة الوحدات النحوية ويميزها عن الوحدات المعجمية. وسيجد بسهولة في كتب النحو:

أ. دراسة البناء للمجهول المجسد في ضمة الواو وكسرة اللام في "وُلِدَ"،

ب. دراسة عن التعريف المجسد في "الألف واللام" من "الهدى" و"الكائنات"،

ج. دراسة عن الفاء في "فالكائنات" وأخرى عن الواو في "وفم".

كل هذا يساهم في فهم النص. غير أن الفهم لن يكتمل حتى إذا تبينا معاني: الولادة، والهدى، والكائنات، والضياء، والفم، والزمان، والتبسم والثناء. وهذه الوحدات موطنها ليس كتب النحو وإنما هي واردة في كتب أخرى سميت "معاجم".

3. اللغة هي إذن مجموعة من القاعد ومعجم. وسيتحقق القارئ من ذلك إذا تمعن في عناصر لغة جديدة يتعلمها. فمعرفة معاني الكلمات لن تكون كافية لفهم هذه اللغة ولا القواعد دون مدلولات الكلمات.

4. لكتب النحو والمعاجم وظائف مختلفة وطرائق في البحث متميزة. وقد يصعب إذا لم يكن يستحيل دمج هذا في ذلك. ولا غرابة إذن إذا انتبه الخليل بن أحمد إلى لزوم إنشاء كتاب في المجال المعجمي سماه "كتاب العين". ولن نناقش قضية إتمام هذا المعجم أو تحريره الفعلي، ولكن طريقة تصنيفه، وهي الأهم، لا تستطيع أن تأتي إلا من عند عبقرى مثل الفراهيدي، الذي تفتن إلى لزوم دراسة ضبط مفردات اللغة.

5. تلت عمل الخليل، أعمال أخرى تواصلت مدة قرون، وأدت إلى

تأليف معاجم نذكر منها:

معجم الجمهرة لابن دريد "ت 231 هـ"

معجم البارع لأبي علي القالي. ت 356

معجم المحيط للمصاحب بن عباد 386

معجم مقاييس اللغة والمجمل لابن فارس 395

معجم الصحاح للجوهري 400

معجم أساس البلاغة للزمخشري 538

معجم لسان العرب لابن منظور 711

معجم القاموس المحيط للفيروز آبادي 718

معجم تاج العروس للزبيدي 1205

6. تُصنّف هذه المعاجم حسب طريقة عرضها للمادة المشروحة أي

"المدخل"، أو حسب حجمها واهتمامها بنوع الكلمات، أو باقتصارها على مدونة معينة.

وباستطاعتنا أيضا إجراء دراسة مقارنة زمنية ستبرز لنا كيف تطورت اللغة بإدخال مفردات جديدة آتية من مجال الاستعمال والاحتكاك بالثقافات الأجنبية، أو من مجال العلوم وتطورها.

7. لا يفوتنا أن نضيف إلى المعاجم العادية المنطلقة من الكلمات،

المعاجم الدلالية التي هي مبنية على المعنى كعنصر أولي، ويمثل هذه

المعاجم "فقه اللغة وأسرار العربية" لـ"أبي منصور الثعالبي"، ففيه نجد مثلاً أنواع الأصوات والرياح والأحجار، وأقسام اللباس والأطعمة والنبات والزرع. ويجانس كتاب الثعالبي كتاب "قدامة بن جعفر": "جواهر البلاغة" الذي لا يكتفي بذكر الألفاظ المتعلقة بمعنى معين أو معانٍ متقاربة، ولكنه يذكر أيضاً استعمالاتها المختلفة مما يجعله أداةً ثمينة لإثراء أسلوب الكاتب.

8. صناعة المعاجم جزء من علم أعم اسمه المعجمية وهي التي تدرس "المفردات" في الخطاب من جوانب عدة كالمبنى، والدلالة، وتواتر الألفاظ في النصوص. والمعاجم لا تُصنع بسذاجة دون أي منهجية. وأول المبادئ يكمن في تحديد "ما يعرف وبأي طريقة يعرف". وذلك لأن المفردات الواردة في النصوص تكاد تكون لانتهائية. فالأسماء ترد على شكل المفرد والمثنى والجمع وتكون مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة والأفعال تكون في الماضي والمضارع والأمر وتكون منصرفة أو غير منصرفة كما أنها تسند إلى الضمائر فيتغير شكلها.

9. كل صانع للمعاجم مضطر لاتباع منهجية تحدد له:

أ. اختيار ما يلزم تعريفه.

ب. طرائق إيصال المعنى إلى القارئ.

أما اختيار ما "يعرف" فهو تابع لاختيار المدونات وإرجاع الكلمات

الواردة في النصوص إلى أصولها وهو ما سماه الغريون بـ *la lemmatisation*

وأما إيصال المعاني فهو يمر عبر الأمثلة ومفهوم أساسي هو "التعريف".

ولذلك فقد رأينا من الفائدة أن نخصص باباً لهذا المفهوم.

3. التعريف وأساسه

1. لو حاولنا تحديد مفهوم "التعريف" لوجدنا أنفسنا أمام مجالات دلالية مختلفة لهذا المصطلح.

(أ) التعريف قد يكون صنفاً من نصوص تحاول تحديد معاني الكلمات وعلاقتها بالأفكار العامة وبما تشير إليه من أشياء وظواهر وعلاقات. والتعريف مرتبط هنا بالفكر والوجود.

(ب) التعريف قد يكون لغوياً مهتماً فقط باستعمالات الناطقين للكلام، ويقود هذا الاهتمام غالباً إلى صناعة المعاجم. ويكون التعريف في هذه الحالة وصفيًا موافقًا للاستعمالات المعتادة والشائعة في المجتمع.

(ج) التعريف قد يكون اصطلاحياً مهمته إدخال مفهوم جديد في علم من العلوم، والتعريف هنا خلق وبناء وهو ملزم بطبيعته وغير قابل لتعدد المعاني فإن عرّفت في الهندسة مثلاً الدائرة كما يلي:

الدائرة هي مجموعة من نقاط المستوي تبعد عن نقطة محددة ببعد ثابت.

فإنه لا يمكنك في أي حال من الأحوال أن تحيد عن هذا التعريف عند ممارساتك للهندسة.

وفي العروض يمكن تعريف الدائرة كما يلي:

الدائرة العروضية هي مجموعة من أوزان البحور ممثلة بأسبابها وأوتادها

ومن الواضح أن الدائرة العروضية لا علاقة لها بالبتة بالدائرة الهندسية،

والتعريف هنا يلغي وجوباً التعريف الهندسي

وفي النحو العربي عرّف القدامى الكلام كما يلي:

الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع (ابن أجيروم)

أو:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم (ألفية ابن مالك)

أما الآن فاللسانيون يعرفون الكلام بطرائق أخرى. والمصطلح إن بقي على شكله القديم فإن دلالاته تغيرت وأصبح هكذا دليلاً جديداً.

2. إذا كان التعريف الوصفي الموجه للجميع والذي نجده في المعاجم العامة لا يضيف شيئاً للغة فإن التعريف المنشئ للمفاهيم يطمح لخلق لغة جديدة كلغة الرياضيين ولغة العروضيين ولغة النحويين، لغة لا يفهمها حق فهمها إلا أهل الاختصاص. ونجده في المعاجم المتخصصة كمعاجم الرياضيات والبيولوجيا والاقتصاد.

في الأبحاث العربية نجد بكثرة الإشارة إلى المعنى اللغوي ثم المعنى الاصطلاحي وذلك للتمييز بينهما، ومن مرادفات التعريف "الحدُّ"، وفي لفظ "الحد" إشارة إلى التزام التعريف الاصطلاحي والاكتفاء به.

3. التعريف مفهوم مركزي في النظرية الدلالية لأرسطو الذي يتبنى المقولات الآتية :

أ- عملية التعريف سابقة لكل عملية منطقية أو استدلالية.

ب- كل كلام دال يستلزم إمكانية التعريف أي أن كل لفظة دالة قابلة للتعريف.

ج- الدلالة واردة حيث يمكن ورود التعريف، لكن لا الدلالة ولا التعريف في حاجة إلى برهان.

د- لا يمكن تعريف كلمة بكلمة واحدة عموماً وإنما التعريف هو شبه جملة تعبر عن التساوي بينها وبين المعرف.

ه- شبه جملة التعريف لا تحمل فعلاً بحيث أنه لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

ملاحظة: الورد الإجباري للفعل في الجملة يخص لغات دون أخرى، فالعربية مثلاً لا تحتاج دوماً للفعل لتكوين الجملة.

4. إذا تأملنا بنية جمل التعريف فإننا نراها ذات أشكال مختلفة وذلك

مثل:

كلامنا لفظ مفيد

الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع

اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة

الوتد المجموع عبارة عن متحركين يتبعهما ساكن

نقول عن مستقيم إنه مماس لدائرة إذا التقى مع الدائرة في نقطة واحدة.

إذا لم يلتق مستقيمان في المستوي فهذا يعني أنهما متوازيان

ولكن ما شاع من بين هذه الجمل التعريفية هو الجملة الاسمية. بحيث

يمكن تحويل باقي الجمل إلى هذا النمط.

وتقسم إذن عناصر التعريف كما يلي:

أ.المعرف : وهو كلمة في غالب الأحيان أو تركيب من كلمات.

ب. التعريف : وهو مركب اسمي أطول من المعرف عموماً.

ج. الرابط، وقد يكون ظاهراً مثل : "هو" أو "هي" أو مستتراً كما هو

الحال في المثال الأول. وهذا الرابط يعني التساوي. والتساوي هنا لا يكون

في اللفظ بطبيعة الحال وإنما هو تساوي في المعنى.

5. لو تأملنا الجملة السابقة الذكر:

الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع

لرأينا أنفسنا في حاجة إلى مزيد من الفهم للمصطلحات الواردة في هذه الجملة. فنضطر لتعريف الكلام واللفظ والمركب والمفيد. فنقول مثلا:

"إن اللفظ هو كل ما يتلفظ به الإنسان"

"واللفظ قد يكون غير مفيد مثل ديز مقلوب زيد وقد يكون مفيدا".

ثم نبحت عن معنى الإفادة. وهذا التسلسل في المفاهيم لا بد أن ينتهي إلى حد نتقبل فيه المصطلح دون شرح إضافي.

6. بالنسبة لعلماء المنطق فالتعريف هو نص يُدخل رمزًا يسمى حدا

terme يشير مع سلسلة assemblage من الرموز إلى شيء واحد .

في الرياضيات التعريف واحد، ونص التعريف قد يكون مكتوبا بواسطة الرموز أو باللغة العادية، والفكرة التي يوحي بها إلينا الرمز تسمى مفهوما رياضيا.

الرمز الذي يعرف هو اختصار لنص التعريف، مثلا:

$$\sqrt{2} = \text{العدد الحقيقي الذي يساوي مربعه اثنين}$$

$$\text{أو } \sqrt{2} = \{ \text{س/س} \ni \text{ح وس} = 2 \}$$

ويمكن نظريا الاستغناء عن هذا الاختصار.

ولكن هذا سيجعل مهمة الرياضي صعبة جدا. فعلى سبيل المثال لكتابة

العدد 1 دون اللجوء إلى التعاريف يستلزم سلسلة تحتوي على أكثر من

عشرة آلاف رمز!

والرياضيون يؤكدون على أن التعريف ليس نظرية وأن المساواة بين حدي التعريف هي مساواة بالتعريف وليست قضية منطقية مثل:

$$2 \text{ س} = \text{س} + \text{س}$$

وإذا عرف الشيء الرياضي بطرائق مختلفة وكانت الخواص متكافئة فالتعريف متكافئة.

7. التعريف لازم لممارسة المفاهيم في أي من الميادين، فعندما يكون التعريف ضبابيا فذلك يعني أن المفهوم نفسه ضبابي وأنه يمكن تناوله بطرائق مختلفة بحيث أنه لا يقود إلى ممارسات فعلية، ففي اللسانيات مفهوم "النظام" مثلا لم يعرفه أحد بطريقة واضحة دقيقة، محددًا ماهيته وسماته، كاتباً حبراً على ورق:

"النظام هو كذا وكذا وكذا".

وانطلاقاً من هذا فإن مفهوم اللغة التي تعرف بأنها "نظام من الأدلة"، يكتسي أيضاً نوعاً من الضبابية، لأن أحد عناصر التعريف وهو النظام غير واضح المعالم.

والبنية شأنها شأن النظام. الرياضيون لهم تعريف دقيق واضح للبنية أما البنويون في العلوم الإنسانية فإنهم يطلقون هذا الاسم على كل مجموعة من العناصر أو المفاهيم مرتبطة بعلاقات. فهل كل مجموعة تكون داخلها علاقات هي بنية؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فما هو نوع العلاقات التي تمنح المجموعة صفة البنية وما هي العلاقات التي تمنحها هذه الصفة؟

كي يصل المفهوم إلى الأذهان وكي يمكن الباحثين من ممارسته حق الممارسة فإنه يلزم لهذا المفهوم أن يكون:

- إما معرفةً تعريفًا جيدًا.

- وإما قابلاً للفهم بحيث يمكن للشخص الإشارة إلى عناصره.

فعلى سبيل المثال لم تكن الأعداد الطبيعية في القديم معرفة بصفة صورية كما هو الشأن الآن، ولكن الرياضيين كانوا بالفطرة يعرفون هذه الأعداد وكانوا قادرين على ذكرها وترتيبها وجمعها وطرحها.

والمفهوم قد يكون متعدد التعاريف أو خالياً منها.

وإذا تعددت التعاريف ولم تكن متكافئة فالمفهوم "مشبوه" وذلك لأن

تعريفين مختلفين يرتبطان دوماً بمفهومين مختلفين.

أما انعدام التعريف لبعض المفاهيم فهذا وارد في كل العلوم والاتجاه

الحالي هو دائماً تعريف ما هو غير معرف إن كان ذلك ممكناً.

8. المصطلحات الأجنبية في عالمنا كثرت وهي في حاجة لمقابل عربي

لكل منها. والمصطلح في لغته الأصلية يملك تعريفاً. وهذا التعريف في

حاجة إلى ترجمة.

في التعريف الآتي المترجم عن الفرنسية:

"الدليل هو اقتران عنصرين يسمى أحدهما دال والآخر دليل"

كلمة دليل التي نريد تعريفها هي ترجمة لكلمة *signe*

ونلاحظ أن التعريف يحتوي على مصطلحين آخرين هما دال *signifiant*

ومدلول *signifié*

وإذا افترضنا أن كلمتي "اقتران" و "عنصر" متفق عليهما. فإننا نرى أن

التعريف العربي مطابق تماماً للتعريف الفرنسي الأصلي والمفهوم واحد، وذلك

بشرط أن تكون لدينا المساواة الآتية:

دليل = signe، دال = signifiant، مدلول = signifié

ولو غيرنا الترجمة واقترحنا التعريف الآتي:

الرمز هو اقتران عنصرين يسمى أحدهما الشكل والآخر المعنى

نكون قد تحصلنا على تعريف ثان مكافئ للتعريف الأول بشرط أن نضع

المساواة:

دليل = رمز = signe،

دال = شكل = signifiant

مدلول = معنى = signifié

مبدئياً تعدد المصطلح لا يؤثر على المفهوم وما يبرهن على هذا هو أننا إذا أدركنا أن مؤلفاً ترجم كلمة phonème بـ "فونيم" أو "مصوت" أو "صوت" فإنه بإمكاننا فهم خطابه.

ولكن من ناحية التبليغ فإن تعدد المصطلح أمر سيئ يتعب المتعلم ويجعله يبذل جهداً لا لزوم له.

والمصطلح مثل كل كلمة في اللغة يحيى بالاستعمال. فإن كانت الدراسات اللغوية الحديثة ضعيفة ونادرة، وكان كل باحث لا يبرز عبقريته إلا في اختيار المصطلحات، فإن اللغة المتخصصة تبقى جامدة غير صالحة لإيصال المفاهيم.

4. باب العربية والعلوم

1. العربية و العلوم

4. باب العربية والعلوم

1. يتفق الجميع على أن العلوم لا تنشأ من لا شيء. فعبقرية الفرد وحده لا تكفي لإنشاء المعرفة. العلم إذن يستورد وينتقل من حضارة إلى أخرى ومن جيل لآخر.

وتنقل العلوم والمعارف بواسطة التجاور والاحتكاك، وفي غالب الأحيان بواسطة الترجمة التي تعد من أنبل الوسائل لإيصال المعلومات.

2. للترجمة وجهان أولهما منطوق متعلق بالشؤون السياسية والتجارية والثاني مكتوب أنبله ما خص العلوم من منطق وفلك ورياضيات. وهذه الترجمة هي التي دعمت اللغة وجعلتها أقوى رافد للحضارة.

3. يقال إن أول مترجم في الإسلام كان الصحابي الجليل "زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري" الذي كان يجيد العربية والسريانية. وقيل إنه تعلم اللغات في وقت وجيز من أجل إيصال الدعوة الإسلامية.

4. الترجمة العلمية مرتبطة بالسياسة الثقافية للحكام. ويُرجع كل المؤرخين نشأتها إلى العصر الأموي الأول مع "خالد بن يزيد بن معاوية" الذي وصفه "ابن النديم" بحكيم "آل مروان" وقد كان معروفًا بحبه للعلوم حتى أنه أرسل إلى الإسكندرية من أتاه بكتب في الطب وعلم الصنعة (الكيمياء) لترجمتها إلى العربية.

5. ومن الخلفاء الأمويين الذين استكملوا جهود الترجمة بعد "خالد بن يزيد"، يذكر لنا المؤرخون "عمر بن عبد العزيز" (99- 101 هـ) الذي

اصطحب معه عند ذهابه إلى المدينة أحد علماء مدرسة الإسكندرية، وهو "ابن أبجر" المتخصص في صناعة الطب.

6. إلى جانب مدرسة الإسكندرية نجد مدرسة "جنديسابور" التي اشتهرت بدراسة الطب وفيها ترجمت مؤلفات اليونانيين إلى السريانية وبعد ذلك نقلت إلى العربية. واشتهرت مدرسة "حران" التي كانت مركزا للأثينيين الصابئة، وهم من السريان الذين اختلطوا باليونانيين الفارين من الاضطهاد المسيحي، وينسب إلى هذه المدرسة: "ثابت بن قرة" الصابئي الذي اشتغل أيام الخليفة "المعتضد" العباسي (279-289 هـ) وكان من ذريته "سنان بن ثابت" الذي حظي برضى الخليفة "القاهر". كما اشتهرت مدرسة حران بالفلك وينسب إليها في هذا المجال: "عبد الله محمد البتاني"، و"أبو جعفر الخازن".

7. وفي العصر العباسي أخذت حركة الترجمة تتسع بعد أن أصبحت ركنا من أركان سياسة الدولة الثقافية. والترجمة التي اقتصرت عند الأمويين على الكيمياء والفلك والطب، شملت المنطق وعلم الرياضيات وباقي العلوم التجريبية.

في عهد الخليفة "أبي جعفر المنصور" 136- هـ 158 نقل "حنين بن إسحاق" بعض كتب "أبقراط" و"جالينوس" في الطب.

وأنشئت في عهد هارون الرشيد "170- 193 هـ" بيت الحكمة التي حوت المعلمين والمتعلمين. وزودت بالكتب التي نقلت من شتى الأوطان. أما المأمون 198-218 هـ فإنه وسع نشاط بيت الحكمة، وجعلها

مفتوحة للجميع. كما أنه أرسل البعثات إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من مؤلفات يونانية في مختلف المعارف. وقد ذكر "ابن النديم" أنه كان بين المأمون وإمبراطور القسطنطينية مراسلات بهذا الشأن.

1. العربية والعلوم

1. اللغة مبنية كما ذكرنا على ركيزتين هما نظامها المتجلي في النحو ومفرداتها المحصنة في المعجم. ولكن اللغة أيضا كلام تتجلى فيه: كلام منطوق وكلام مكتوب.

والكلام يمكن تقسيمه إلى أدبٍ تبرز فيه وظائف عدة من بينها الوظيفة الشعرية، وعلوم مبنية على إقصاء الذاتية والاقتصار على إيصال المعلومات. الفصل بين هذين الصنفين يبدو أحيانا صعبا. ولكن التمييز بين الأجناس الأدبية والعلمية قد فصل فيه القدماء. ويمكننا الاعتماد عليه.

2. لن نتعرض لمجمل العلوم وتصنيفها وإنما سنركز على الرياضيات لأنها العلم الدقيق الأفضل الذي تجلت فيه عبقرية العرب والمسلمين الناطقين بها.

3. لو حاولنا تعريف الرياضيات العربية في ذلك الوقت لقلنا: "إنها الرياضيات التي كتبت بلغة الضاد وذلك بغض النظر عن جنس وأصل الذين أبدعوا فيها".

أما النصوص التي ألهمت هؤلاء العلماء في بداية العطاء فإن أغلبها جاء من اليونان، وذلك عبر الترجمات أو الاطلاع المباشر.

4. أشهر كتاب في الرياضيات هو "عناصر الهندسة" الذي ألفه إقليدس في الإسكندرية "300 ق.م" وقد ترجم مرتين من طرف "الحجاج بن يوسف بن مطر"، مرة خلال خلافة الرشيد وسميت هذه الترجمة بالرشيدية ومرة تحت خلافة المأمون وسميت بالترجمة المأمونية. كما ترجمه حنين بن إسحاق وأصلحه ثابت بن قرة.

وهذا الكتاب الذي عنوانه بالفرنسية Les éléments d'Euclide ما زالت تدرس بعض عناصره حتى اليوم في الثانويات، وهو مبني على بديهيات مثل "من نقطتين متميزتين يمر مستقيم واحد" أو "لا يمر من نقطة معينة إلا مستقيم يوازي مستقيما معينا". وهذا الكتاب الذي هو مجموعة كراريس لم يصل الغرب إلا في القرن الثاني عشر

5. وترجمت مؤلفات "أبلونيوس" و"أرخميدس" صاحب كتاب المخروطات. وهي كتب تدرس الأشكال الهندسية وتبحث في المساحات والحجوم. وقادتهم الترجمات إلى التطرق إلى الأعداد الصحيحة والأعداد الكسرية التي نبغوا فيها وذلك قبل اكتشاف الجبر الذي أدى إلى حل معادلات معقدة.

6. وإذا ركزنا الاهتمام على العلماء فمن الواضح أن أشهرهم هو الخوارزمي الذي اخترع علم الجبر وأدخل الأرقام الهندية، كما اشتهر ثابت ابن قرة الذي كان يحسن اليونانية، والكرجي الذي استعمل الحساب لحل قضايا جبرية، وأبو كامل المصري، والطوسي، والكاشي الذي عمم نظرية فيثاغورس مستعملا حساب المثلثات الذي كان مجهولا عند الإغريق.

هؤلاء الباحثون كونوا جماعات علمية وجدت في بغداد أيام العباسيين أو في نيسابور وشيراز أو في شمال إفريقيا. وقد يفصل الزمان بينهم ولكنهم كانوا مطلعين على أعمال من سبقوهم. والذي شجعهم على العمل والبحث هو الرعاية التي حظوا بها من طرف الحكام ومعظم المثقفين.

7. أما الخطاب الغربي السائد اليوم والذي يرى فيهم مجرد مترجمين لأعمال غيرهم، فهو ناتج عن عداوة تقليدية للعالم العربي الإسلامي وعن جهل أو تجاهل للكم العظيم من الاكتشافات التي أتوا بها خلال قرون من البحث.

8. وحتى نألف النص الرياضي القديم علينا أن نتأمل بعض النماذج. اخترنا لهذا الغرض مقتطفات من كتاب عنوانه "الخلاصة في علم الحساب والجبر والمقابلة" لبهاء الدين العاملي "953-1021 هـ". وهو كتاب متأخر دال على استمرار البحث العلمي.

من ناحية بنية النص فالمؤلف يبدأ بالشكر للخالق، بصفة وجيزة وطريفة متعلقة بالمادة المدروسة، فهو يقول هنا بعد البسملة:

"نحمدك يا من لا يحيط بجميع نعمه عدد، ولا ينهي تضاعف قسمته أمد، وأصلي على سيدنا محمد النبي المجتبي وعترته، لاسيما الأربعة المتناسية أصحاب العباد".

ومباشرة ينتقل المؤلف إلى تقديم عمله في بضعة سطور

في الباب الأول الذي سمي في حساب الصحاح نقراً:

"زيادة عدد على آخر جمع، ونقصه منه تفريق، وتكريره مرة

تضعيف،..."

نرى هنا أن المؤلف شرع في وضع بضعة تعاريف بالطريقة التي ذكرناها أي بواسطة جمل بسيطة، من النمط أ = ب، بل نراه أكثر إيجازا إذ اختصر كلمة يساوي بعبارة مثل أ هو ب.

وفي الفصل الأول من هذا الباب والذي سمي "في الجمع" وهي عبارة قد تستعمل في المؤلفات الأجنبية كثيرا مثل *De la connaissance* أي في المعرفة. نقرؤه كاتبا:

"ترسم العددين متحاذيين، وتبدأ من اليمين..."

وقد نتساءل لماذا يتوجه المؤلف إلى القارئ، ويأمره بإنجاز هذه العمليات؟

ليس هذا من باب الأسلوب وإنما الخطاب هنا من باب الخوارزميات. والخوارزمية تختلف عن القاعدة لأنها مكونة من أوامر مرتبة. وهذه الخوارزمية هي التي تُعلم حتى اليوم إلى أبناء العالم كله. والجدير بالذكر أن خوارزميات الجمع والطرح والضرب والقسمة كانت مجهولة من طرف اليونانيين لسبب بسيط وهو أنهم لم يكونوا يستعملون الأرقام العربية ونظامها.

لو تأملنا البنية العامة لهذا الكتاب ولغيره من كتب الرياضيات القديمة لرأيناه يحتوي على فصول للتعاريف وأخرى للقواعد أو الخوارزميات وأخرى للبراهين والنظريات وأحيانا على أمثلة وتمارين. وهي بنية لا تختلف كثيرا عن بنية النصوص الرياضية المعاصرة.

أما من ناحية المفردات فإننا نجد مختصرا جدا. فالأسماء معظمها مصطلحات، والروابط روابط منطقية عموما مثل الواو وأو ولا الدالة على

الوصل والفصل والنفي، و"إن كان" الدالة على الاستلزام، و"من" الدالة على الاحتواء، و"مثل" الدالة على التكافؤ.

كل هذا إن أحصيناه وصنّفناه يرينا أننا أمام نوع من النصوص جديد أعطى للغة حداتها في ذلك الوقت. والدليل على ذلك أن هذه الكتب تقرأ في عصرنا هذا دون اللجوء إلى المعجم. بل الرياضي الحالي يفهم مقاصدها أكثر من المتبحر في علوم اللغة.

9. ويمكننا أن نقارن لغة هذا الكتاب في الرياضيات بلغة كتاب في النحو. وهو "المفصل في علم العربية" للزمخشري، هذا الكتاب مرتب حسب أربعة أقسام: قسم الأسماء وقسم الأفعال وقسم الحروف وقسم المشترك. وكالعادة يبدأ المؤلف بالتعريف: "الاسم هو ما دل على نفسه دلالة مجردة وله خصائص منها جواز الإسناد إليه ..".

ونرى تجانسا كبيرا بين الكتابين فهما مصنفان بطريقتين متشابهتين ومبنيان على المنطق والاستدلال. ولغتهما بسيطة. وهذا يجعلنا نجزم بأن اللغة العربية انتقلت إلى مرحلة جديدة جعلت منها أداة قوية لوصف العلوم.

5. باب الشعر واللغة

1. الشعر والوزن

2. الشعر بين الفهم والغموض

3. مستقبل الشعر

4. تدريس الشعر

5. باب الشعر واللغة

1. الشعر والوزن

1. كل اللغات تتجلى في أدبها، فهو الدال على وجودها، المثبت لبنيتها، المستقر في ذاكرة أهلها. فهل يتخيل أحد أن الفرنسية عاشت لولا رونصار وفيكتور هيجو، وموسي، وبودليير؟ وهل الإنجليزية موجودة دون شكسبير وت.س. إليوت، والروسية دون تولستوي وبوشكين والإيطالية دون "دانتي"، والعربية دون طرفة وجربير وأبي فراس والجاحظ والحريري؟ لا يمكن تقزيم النثر العربي، الذي كان مرآة للمجتمع الذي أُلّف فيه، غير أن الشعر هو الجنس البارز أو *la dominante* حسب تعبير جاكسون من بين كل الأجناس الأدبية التي حددها القدماء.

ولكن ما هو الشعر؟

إن النصوص التي تحاول تعريفه كثيرة حتى يخيل لنا أن هذا التعريف مستحيل. والسبب في هذا راجع لمحاولة يائسة للحصول على نص واحد يجمع بين البنية الصورية والبنية الدلالية وبين الشعر القديم والحديث وبين المدارس المختلفة ورؤى النقاد والشعراء أنفسهم.

في المعاجم الفرنسية مثلا نجد هذه التعاريف:

أ. الشعر فن لغوي هدفه التعبير أو الإيحاء عن التناسق والصور.

ب. الشعر سمة ما يوحي بالإحساس الشعري.

ج. الشعر هو القدرة على الإحساس بالعاطفة الشعرية.

هذه التعاريف التي نجدتها في كل اللغات تربط الشعر باللغة والموسيقى، والطبيعة، وإدراك الجمال. وبالنسبة للعربية فمعنى الشعر الأول موجود في الكلمة نفسها التي تعني الإحساس. أما تعريفه المتداول فهو "الكلام الموزون المقفى عن قصد".

وهذا التعريف يحدد الشعر كجنس أدبي، وهو تعريف إجرائي. أما البلاغيون فإنهم أضافوا للشعر سمات أخرى كالتخيل أو "الكذب" وهي سمات قد تنطبق بدرجات متفاوتة عليه وتطمح إلى تمييز نصوصه عن باقي النصوص اللغوية المنطوقة منها والمكتوبة. كل هذا يقودنا إلى الملاحظات الآتية:

أ. الشعر في نشأته مرتبط باللغة المنطوقة. وإن دون كتابة فهذا التدوين يبقى خاضعا للمنطوق.

ب. الشعر موجود في كل اللغات الفصيحة منها والعامية. ولا فرق بالنسبة لنا بين الشاعر الجاهلي في عكاظ أو بين من نسميه "المداح" الذي يتوسط حلقة من المعجبين في سوق شعبية.

ج. الشعر العمودي يتجسد في قصائد كل منها مقطعة إلى أبيات متكافئة في الوزن كليا أو مثنى مثنى قد تنتهيها القافية أو لا تنتهيها.

د. وظيفة القافية الأولى، وليست الوحيدة، هي التأكيد على نهاية البيت وقد تكون غائبة في بعض الأشعار كالشعر اليوناني أو الإنجليزي القديم، ويعوض القافية في هذه الحالة العدد سواء كان عد مقاطع أو عد حروف أو عد نبر.

هـ. وظيفة الوزن الأساسية هي وظيفة "الذاكرة". وذلك أن ما هو موزون يحفظ أكثر من غيره. وترافق هذه الوظيفة وظيفة ثانية هي الوظيفة "الإنشادية" التي تجعله قابلاً للغناء أكثر من النثر.

و. سمة "الذاتية" تُخرج عن مجال الشعر القصائد التعليمية الممثلة بالألغيات والأراجيز في النحو أو الفقه أو حتى الرياضيات، فهذه النصوص تنتمي إلى النظم لا للشعر. والدافع لإقصاء هذا الإنتاج هو أن الخطاب هنا خطاب علمي موضوعي خال من المشاعر، والخيال. وهذا لا يقلل من أهمية هذا الكلام الموزون ولا من جهد صاحبه. فالناظم يختزل القواعد بدقة عالية ويراعي مبدأ الوحدة الدلالية للبيت، وقيود القافية الصوتية والمعجمية.

2. إذا انطلقنا من تعريف الشعر ككلام موزون مقفى، فعلينا أن نعرّف هذا الوزن. فمن الواضح أن الشعر لا يأخذ هذا الوزن من شيء خارجي، وإنما يأخذه من اللغة نفسها. وهذا الذي يؤخذ من اللغة سنسميه إيقاعاً. ولكن ما هو إيقاع اللغة؟

كل من يسمع لغة لا يفهمها يلاحظ فيها ورود حروف غريبة عنه، وسرعة أو بطء في التأدية وتركيز على بعض العناصر. كل هذا متعلق بالطبيعة الصوتية للغة.

لقد بينا في أبحاثنا أن مفهوم الإيقاع يبقى مبهماً إذا لم نربطه بموضوع محدد، لأن الإيقاع هو دائماً "إيقاع شيء ما".

وعبارة "إيقاع اللغة" عليها أن تشمل الكلام برمته، وحسب كل مستوياته. في أسفل هذا الهرم نجد الأصوات وتسلسلها. فهي التي تحدد زمان اللغة الأول. ولكن الأصوات إذا قسنا مدة التلفظ بها فإننا لا نجد

مقادير متساوية. فزمان اللغة ليس الزمان العالمي الذي يقاس بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات والقرون، وإنما هو زمان نسبي قد تتساوى فيه الأصوات على اختلافها، إلا إذا اقتضت البلاغة مثلاً التمييز بين مهموس ومجهور أو مستمر وانفجاري.

هذه الأصوات تجمع إلى مقاطع لغوية مكونة من حروف وحركات. والمقاطع لها بنايات مختلفة من لغة لأخرى. فهي تحتوي على بؤرة هي عموماً حركة واحدة وقد تكون منعزلة أو محاطة عن اليمين أو الشمال بحرف صامت أو عدة حروف.

في العربية تصنف المقاطع إلى طويلة وقصيرة. وهذا التصنيف الذي يكافئ بين "ما" و"من" فهو من باب الوزن الشعري وليس من باب اللغة. أما الذي هو من مجال اللغة فهو "طول الحركات وحدها"، فاختلاف مدتها هو الذي يجعلنا نميز مثلاً بين "مطر" و"مطار".

3. تعاقب الأصوات ينتج عنه تعاقب المقاطع وهو ما سنسميه وزن النص أو إيقاعه الأدنى. والعرب قننوا أوزانهم بواسطة السواكن والمتحركات. ومن السهل البرهان على أن هذا التقنين يكافئ التقنين بواسطة المقاطع. فالمعادلتان:

متحرك غير متبوع بساكن يساوي مقطع قصير.

متحرك متبوع بساكن يساوي مقطع طويل.

أو بالرموز:

ق = 1

ط = 01

كُتِبُ = 0111 = ق ق ط

والجدير بالذكر هو أن استعمال السواكن والمتحركات مبني أكثر على الكتابة والدليل على هذا أن هذا التقنين يتطلب الكتابة العروضية التي هي كتابة صوتية بامتياز.

وأما الجدل حول تفضيل تقنين على آخر بحجة أن أحدهما أكثر علمية من الآخر أو أنه يلائم الصوتيات العربية أكثر من غيره، فإنه جدل عقيم.

4. لو ركزنا على الناطق فإننا نلاحظ أنه لا يؤدي النص بصفة مستمرة دون استراحة. فهو في كل الحالات يتوقف، مقطّعا هذه السلسلة إلى سلاسل أصغر. ولكن هل يتوقف الناطق بصفة عشوائية أم أن له أماكن محددة يكون فيها التوقف مستحبا إن لم يكن واجبا؟

في "طلع البدر" التي وزنها بالمقاطع "ق ق ط ط ق" لا يمكن أن يكون التوقف بعد المقطع الأول أو الثاني وذلك لأسباب دلالية فالتقسيمان: "ط/ لع البدر" أو "طل/ عالبدر"، يخلان بالتواصل ويجعلان السامع يتساءل عن معنى "ط" أو "طل".

ولا يتوقف الناطق بعد طلع لأن الناطق يكون في هذه الحالة مجبرا على تغيير همزة الوصل إلى همزة قطع. فيقول "طلع/ ألبدر" مخالفا للنطق المعتاد.

كما أن الوقف لا يكون فاصلا بين مدغمين مثل "مما"، "لما".

كل هذا يرينا أن الوقف تابع للنحو والقواعد الصوتية.

خلال السبعينات برزت عند "التحويلين" أبحاث حول المقاطع اللغوية سميت "الفونولوجية المترية" من خصائصها أنها لا تنظر إلى المقاطع

كسلاسل متعاقبة فقط في النص ولكن كبنية شبيهة بالبنية النحوية، تحتوي على مستويات من بينها الأرجل أي التفاعيل. ولكن هذه النظرية لم نجد لها حتى اليوم إلا بعض التطبيقات النادرة.

ولا يفوتنا أن نذكر في مجال التأدية الأبحاث الوافية المفصلة في علم التجويد حيث عُرِفَ الوقف وصنف بالنظر للملقي والنص ومكوناته الدلالية والصوتية.

أما الإلقاء الشعري فهو يختلف عن إيقاع النثر وذلك أن البيت والشطر وحتى التفعيلة عناصر إضافية تفرض وجودها على تأدية الناطق. ويصبح هكذا التواصل في مجال الشعر مبنيًا على تواصلين: تواصل لغوي وتواصل إيقاعي. فالتواصل اللغوي قوامه بنية اللغة والمعاني التابعة لهذه البنية. أما التواصل الإيقاعي فهو أيضا موجود، فلولاها لما كلف الشاعر نفسه كل هذا الجهد في قولبة جملة داخل الوزن ولما أورد تشبيها أو استعارة أو جناسا.

5. من الواضح أن الأوزان العربية كانت موجودة قبل الخليل وتنظيره لها. وهو أمر يخص كل اللغات. وقد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن أصل البحور هو الرجز، وأوردوا بعض الحجج الواهية كسير الإبل التي تشبه خطواتها عناصر هذا البحر، كما حاولوا البحث عن أول شاعر ألف قصيدة. وهذا التفكير والبحث يشبه إلى حد كبير الأبحاث الخاصة بنشأة اللغة. وإنما الذي نعرفه يقينا هو كون البحور والأوزان قد وصلتنا كلها دفعة واحدة. فالكامل وأصنافه والوافر والبسيط والرجز وباقي البحور إرث جماعي

كالإرث اللغوي ونظامه. وصلنا واتبع قواعده عنترة وامرؤ القيس والشنفرة وآلاف الشعراء حتى يومنا هذا.

يبقى أن بعض البحور يمكن تأريخها مثل "الخبب" الذي وصلنا مع قصيدة الحصري "يا ليل الصب متى غده" أو قصيدة "المنفرجة" لابن النحوي. وخرافة استدراكه من طرف الأخفش لا مجال لها من الصحة.

ولدينا أيضا معرفة بتاريخ نشأة شعر التفعيلة. وتلك النشأة لم تكن آتية من القواعد وإنما جاءت من قصيدة أو اثنتين إحداهما لنازك الملائكة والأخرى للسياب. وهذه النشأة لم تكن اعتباطية فهذا الشعر أخذ إيقاعه من أوزان البحور الصافية، وكانت له دوافع من بينها تسهيل التعبير لموافقة متطلبات العصر.

6. تُصنّف أوزان الأشعار حسب النظام النغمي للغة وذلك حسب ثلاثة

أقسام كبرى:

أ. شعر النبر كالشعر الانجليزي

ب. شعر عد المقاطع كالشعر الفرنسي.

ج. شعر الكم كالشعر العربي والشعر اليوناني.

وهذه الأصناف ليست في اعتقادنا مجموعات منفصلة ولكنها صفات

بارزة في كل شعر موجودة مع غيرها.

فمن يعتقد مثلا أن الشعر الفرنسي هو شعر عد خالص فهو مخطئ،

لأن عروض هذا الشعر لا يكتفي بالعد فهو يتعامل مع المقاطع بصفة خاصة

مغايرة للنثر، ويشطر بعض الأوزان، ويحدد قطعاً إيقاعية كالتفاعيل عندنا

موظفاً النبر اللغوي الذي هو نبر تحديدي للكلمات في هذه اللغة،

وقد يكون النبر غير مؤكد في اللغة، ولكنه موجود في الشعر. ففي العربية نراه يخص الوتد أساسا وأحيانا الوتد وبعض الأسباب. وفي الشعر اليوناني يجزئ العروضيون وحدات البيت إلى "أرجل" انطلاقا من النبر الذي يقع على أحد مقاطعها.

أما العد، فهو سمة ظاهرة في أوزان كل الأشعار. فمعظم الشعر العربي مبني على ثبات عدد المقاطع في أبيات القصيدة الواحدة. ويشاطره في ذلك بعض الشعر اليوناني. وللتأكد من هذا خذ أي بيت من البسيط الأول فإنك ستجد عدد مقاطعه في كل شطر يساوي 14. وخذ أي بيت من الرجز الأول فإنك ترى أن عدد المقاطع فيه يساوي العشرة في كل شطر، وذلك مهما كانت الزحافات التي تدخل عليه.

أما الكامل والوافر والخب فالثبات العددي يخص عدد السواكن والمتحركات. فمتفاعلتن تتأرجح بين أصلها وشكلها المضممر متفاعلتن وتبقى في كل الأحوال سباعية، ومفاعلتن في الوافر إن آلت إلى مفاعيلن تبقى سباعية، وفعلن وفعلن تتقاسمان الخب وتبقى رباعية.

وإذ نعت الشعر العربي بالشعر الكمي، فالكم لا يعني دوما تساوي مقطعين قصيرين بمقطع طويل. وإنما هو يعني أن ما يميز وزنا عن آخر هو الطول والقصر من حيث الترتيب. فالسبعيات من التفاعيل لا تختلف عن بعضها إلا من خلال موقع المقاطع الطويلة والقصيرة.

7. نمذجة وزن الشعر تسمى العروض. وهي موجودة في كل اللغات الثقافية المكتوبة، مثلها مثل النحو. وأغراضها كأغراض اللغة التي أبرزناها سابقا والمتمثلة في الوصف، والتعديد، والتعليم، والبحث.

العروض العربي عرف منظره الأول والأمثل وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي. وليس من الغريب أن يكون صاحبه لغويا بارزا ومنظرا في مجالات مختلفة كالصوتيات والصرف والنحو والمعجم.

ولو بحثنا ما أخذه الخليل من علوم اللغة لبناء نموذج لرأينا أنه أخذ من الصوتيات وعلم الخط مفهومي الساكن والمتحرك ومن الصرف التفاعيل ومن علم التراكيب البحور ومن المعجم الدوائر. وقد طبق كل هذا على ما عرض عليه من شعر وأضاف أشياء خارقة للعادة يمكن لكل واحد أن يلاحظها.

واتهام الخليل بتجميد الأوزان لا أساس له من الصحة، فالاستعمال ملك للمستعملين. ومن أراد أن يخرج عن نظامه فهو حر أن يخرج ومن أراد أن يسايره فهذا شأنه. ويمكن إجراء الملاحظة نفسها بالنسبة لنظام الفصحى، فلا النحويون الأوائل استطاعوا منع اتجاه اللغة إلى العمومية في التعامل العفوي، ولا المتأخرون تمكنوا من إصلاح السنة العوام.

تصنيف الخليل حدد لنا البحور وأصربها والتغيرات التي تطرأ على التفاعيل عند الاستعمال. وهذا التصنيف يُظهر لنا خاصية الشعر العربي واختلافه عن غيره من الأنظمة العروضية. فهو يكتسي نوعا من الرتبة ظاهرة في التكافؤ العام بين أبيات القصيدة الواحدة ووحداية القافية. ويمكن تبرير هذا بالطبيعة التي عاش فيها العرب ورتابة الصحراء التي أحاطت بأماكن إقامتهم. كما يمكن اللجوء إلى نظرهم للزمن والمكان، ولكن كل هذه الأمور تبقى من باب الافتراض.

8. للشعر بعدان: بعد اجتماعي وبعد نفسي. فمن الواضح أن الشعراء لعبوا دورا هاما سواء لما كانوا يرفعون لواء قبيلتهم أو كانوا مقربين من حاكم يمدحونه ويساهمون في نصرته. أما الجانب النفسي فلا داعي للتأكيد عليه. فهو بين عند الشاعر الذي يترك العنان لعواطفه خلال المدح أو الفخر، وبين أيضا عند المتلقي الذي يطرب عند سماعه ويجد فيه ما يوافق تجربته في الحياة.

والفصل بين البعد الاجتماعي والبعد الذاتي للشعر فصل غير قاطع. فجعل الشعر يأخذ نصيبه من هذا وذاك. وإنما ميله إلى أحد القطبين هو قضية درجات.

9. للشعر جماليات تتعدى كونه موزونا، فبعضها صوتية وبعضها صرفية ونحوية وبعضها دلالية. وهذه السمات ليست إجبارية كما هو الشأن في الوزن. وقد درس هذه الجماليات البلاغيون والنقاد العرب أمثال "ابن طباطبا" و"قدامة بن جعفر" و"عبد القاهر الجرجاني" وفصلوا فيها. وتلاههم المحدثون اليوم. وكل هذا يدل على اهتمام بالشعر ينافس اهتمام متذوقيه.

والقافية التي هي جزء لا يمكن فصله عن نظام الشعر، لها نصيبها من الجماليات، فهي لا تستطيع أن تكون مجرد تكرار للحروف والحركات. وقد بينا في "نظرية القافية" سماتها المعجمية والنحوية والدلالة.

2. الشعر بين الفهم والغموض

1. لو بحثنا عن ماهية متلقي الشعر سواء كان سامعا أو قارئاً لوجدناه واحداً من بين جماعة. فحتى وإن مدح صاحب القريض أميراً في بلاطه أو هجا خصماً له أو تغنى بمحبوبته أو كلم ما لا يصغي له كالديار والقفار، فإن صوته يصل الملايين من الناس ويبقى لمدة قرون متاحاً للجميع.

2. والذي يطرح بالنسبة لكل رسالة هو مدى وصولها. أو مدى وصول ما نواه باعثها. فالمرسل يضمن الكلمات معان هو قاصدها والمرسل إليه يعطي لهذه الكلمات معان قد تتطابق مع دلالات صاحب الرسالة أو تخالفها. وهذا الاختلاف قد يكون في النثر خفيفاً ولكنه في الشعر عميق مما يجعل الرسالة الشعرية تتأرجح بين الفهم والغموض.

3. وقضية غموض الشعر ليست وليدة اليوم، فقد درسها القدماء وأوضحتها قصة الأعرابي الذي سأل أبا تمام: لِمَ تقول ما يفهمه الناس؟ فأجابه الشاعر: لم لا تفهم ما أقول؟

ولسنا ندري إذا كان الأعرابي يقصد بالكلام المفهوم النثر العفوي أم بعض الشعر البسيط الذي هو في متناول عامة الناس. وفي كلتا الحالتين فالشعر طبقات ليس فقط من ناحية الجودة كما صنّفه البلاغيون ولكن من ناحية البساطة والقرب من فهم العوام.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللغة نفسها تطورت عبر العصور. وهذا التطور لا يظهر بوضوح في البنى التركيبية ولكنه جلي في معجمها.

والشعر الذي هو مرآة لها تغيرت لغته ودلالاته وأهدافه. فمفردات شعر الجاهلية ليست مفردات الشعر الأموي أو العباسي أو شعر النهضة.

4. ولا أظن أن الصعوبة جاءت فقط من إرادة للشاعر في التميّز، بل هي ناتجة، في رأينا، عن القيود التي يفرضها كل من الوزن والقافية على اللغة. فكل من مارس الشعر يعرف صعوبة إدراج بعض الكلمات في الوزن. وبصفة أدق فمحور الاختيار أو الاستبدال أصبح يعتني في الشعر بشيئين: مسايرة اللغة من جهة ومسايرة الوزن من جهة ثانية، ففي :

"سئمت ... الحياة"

يجوز لغويا إدراج مئات الألفاظ مثل:

متاعب، مشاق، صعوبات، كدر..

ولكن يتحتم على هذه القائمة أن توافق الوزن العروضي، ولذا فإن شاعرنا اختار "تكاليف" أما تفضيله لهذه اللفظة على "صعوبات" فإن دافعه راجع للغة ذلك الزمان ولرغبة الشاعر ربما أن يميز إنتاجه عن النشر.

أما قيود القافية فهي في الشعر العربي أكثر صرامة من قيود الوزن. ففي نهاية بيت الأعشى نراه ملتزما بمعجم محدود جدا من ناحية حرف الروي وما جاوره من حروف وحركات.

وإنما عبقرية الشاعر أنه بدأ بيته بالسأم ولم يستعمل الممل أو الكراهية وأنهاه بالسأم وهو ما يشير إعجاب السامع الذي يدرك أن الناظم استبق زمان ورود القافية.

كل هذا يذكرنا بقول " بول فالري": "الشعر لغة وراء لغة".

ومما يؤكد هذا القول هو ما نجده في بعض المؤلفات التي يتخللها الشعر. ففي "طوق الحمامة" مثلاً نرى "ابن حزم" يدرّس الحب بطريقة شبه علمية وذلك بأسلوب فني، قريب جداً من الفهم. في باب "علامات الحب" نراه مثلاً يذكرها ويصنفها وكأنه عالم نفساني يدرس مواقف شخص مصاب بعصاب أو منخلولياً. وإذا به يقول:

"ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات منها:

أهوى الحديث إذا ما كان يُذكر لي فيه ويعبق لي عن عبر أرح

إلى آخر المقطوعة.

وهنا يشعر القارئ بأنه دخل فجأة عالماً آخر. حتى أنه يتخطى هذه الأبيات لأنها تكلفه جهداً غير جهد قراءة الشعر.

5. إن النقص في فهم الشعر عند عامة الناس أدركه علماء اللغة وبرز منهم من قام بشرح القصائد والدواوين مركزاً على المعجم والتراكيب والبلاغة وذلك بواسطة نشر مبسط يفهمه الجميع. بحيث أنه يمكننا وصف هؤلاء الشراح بأنهم "فكاكو رموز" أو *décodeurs*. ويصبح إذن التواصل حسب مخطط "شانون" الإعلامي كالاتي:

الشاعر - التشفير - القصيدة - فك التشفير - المتلقي - الشراح

واهتم الشراح بالقصائد التي أعجب بها الناس لجمالها أو مكانتها التاريخية. وبعد الشرح زاد الاهتمام بهذه القصائد. وذلك أن الإنسان محب بطبعه لفك الرموز، ومتذوق لما يفهم أكثر مما هو متذوق لما يجهل. بل هو نافر للغموض نفور من يسمع لغة لا يفقهها.

ومن القصائد التي تتطلب الشرح قبل غيرها المعلمات السبع فجاء
الروزني " - 468 هـ " ليفك رموزها في كتاب مشهور .

وشرح "لامية العرب" أكثر من أربعين عالما من بينهم المبرد ت 291
هـ التبريزي 502 ت. هـ - الزمخشري ت. 538

وشرحت لأهميتها التاريخية قصيدة كعب بن زهير " بانة سعاد " من
طرف العديد من العلماء .

ولا يسعنا المكان لذكر كل القصائد والدواوين التي شرحت . والعجيب
في أمر هؤلاء الشراح أنهم توصلوا رغم الزمن الذي يفصلهم عن أهل
القصائد إلى فهمها مع العلم بأن الفهم لا يقتصر على المفردات أو التراكم
وإنما هو متعلق أيضا بالسياق والبيئة والتقاليد ونفسية الشاعر .

6. وقد يكون القارئ العادي غير مطلع على أعمال هؤلاء الشراح فيبقى
يفك رموز الشعر في وحدته وحسب ملكته اللغوية . وعندما يطلع على بعض
الشعر القديم كمعلقة الأعشى التي يقول فيها:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
كان مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

فإنه يستطيع الأبيات ويفهم فهمها تقريبا جل مفرداتها، ولكنه يبقى
حائرا أمام بعض الكلمات كـ "الوحل" التي تعني الشخص الذي يمشي ببطء
في "الوحل".

وفي هذا الصدد أجرينا اختبارا يخص الفهم على ثلاثة أصناف من
المتلقين سميناهم قراء لأن النص عرض عليهم مكتوبا:

القارئ "أ" هو المترجم الآلي الذي له ملكة خاصة.
 القارئ "ب" هو شخص مثقف ثقافة علمية مهنته الهندسة يقرأ الجرائد
 وربما الروايات ولا يعرف إلا النزر القليل من الشعر.
 القارئ "ج" هو شاب متحصل على شهادة عليا في فرع الآداب، مطلع
 على الشعر وحافظ منه بعض المقطوعات. غير أن هذا الشعر لم يشرح له
 الشرح الكافي من طرف أساتذته. ولكن ميوله إلى القصة تجعلنا نعتنه
 بالأديب.

واخترنا نصا قصيرا يتمثل في بيتين هما :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفدَ مكبول
 وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول

بالنسبة للنص فالمعلومات العامة الخاصة به معروفة من طرف الأديب،
 فهو يدرك أننا أمام مطلع قصيدة "كعب بن زهير" التي يمدح فيها معتذرا
 الرسول "صلعم". والقصيدة تبدأ بذكر المحبوبة حسب عادة العرب. وهو
 يحفظ منها هذين البيتين:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
 إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ولكن منافسيه يجهلان هذا. المهندس يعرف أننا أمام بيتين من شعر
 قديم والحاسوب لا يعرف إلا أن الكلام ينتمي إلى العربية.
 لندرس البيتين حسب تسلسل الكلمات ولنحدد المعلومات التي تبرز
 عند كل واحد.

في مطلع البيت الأول نجد كلمة "بانة": وهي بالنسبة للجميع فعل ماض لحقته تاء التأنيث. ولكن للفعل "بان" مدلولين متضادين الغياب والظهور. المهندس لا يعرف إلا المعنى الثاني وهو جزء من معجمه الذهني يستعمله حتى في عاميته. أما الأديب فهو متعود عليه وقد لقبه في بعض الأشعار القديمة مثل:

بانة سعاد وأمسي حبا انجذما
بانة سعاد فقلبي اليوم ملمول
بانة سعاد وأمسي دونها عدن..

بالنسبة للكلمة الثانية فالكل أدرك أنها اسم علم. والكلمة الثالثة اتفق الجميع على أنها تدل على الحب. والرابعة على أنها ظرف زمان. حتى وإن كان هذا الزمان زمان القول وليس الزمان الحقيقي لأن القصيدة مرت على نظمها القرون. وتأتي كلمة "متبول" وهي اسم مفعول خبر. ولمتبول ثلاثة معان فقد تكون آتية من التبول وهو معروف، أو من التبل وهو إما الحقد أو الضعف. هذه الكلمة لم يدرك معناها لا المهندس ولا الأديب. وبقيت بالنسبة لهما لغزا. فهما شيئا من هذا اللغز وهو أن الشاعر تحت وطأة المشاعر التي أثارها سعاد بغيابها أو مجيئها. ووضعنا نقطة استفهام أمام هذه الكلمة. ويمكن أن نقول إن نسبة ورود هذه الكلمة بمعناها الحقيقي تساوي الصفر في معجمها الذهني. أما مترجمنا غوغل فهو مضطر لوضع كلمة مقابل هذه

المفردة فاختار أسوأ الاختيارات. وشكلناها له حتى يحدد عن هذا الاختيار ولكنه لم يفعل. والسبب واضح وهو أن التبل غائب عن معجمه. أما الكلمة الأولى من الشطر الثاني أي "متيم" فهي مألوفة عند الأديب وغريبة عند العالم. ولكن المترجم الآلي يدركها إذ أعطانا كلمة amour أي حب في مقابلها.

"إثرها" مألوفة عند الأديب والعالم ولكن المترجم الآلي اتجه نحو الأثر المادي.

وبقي التركيب "لم يفد مكبول" الذي حير الجميع وأجبر المترجم على ترجمة كل الشطر الثاني بكلمة واحدة détesté أي مبغوض. وحل اللغز وارد عند القدماء فالمعنى هو أن الشاعر كالمكبّل أي المقيد أو المسجون ولكنه مسجون لم تدفع فديته حتى يطلق سراحه. والغموض جاء من الكتابة حيث "مفد" مجزوم غابت ألفه المقصورة ومن قلب المركب "مكبول لم يفد". أما البيت الثاني فتكمن صعوبته في حذف المشبه به وهو الغزال الأغن. وهذا ما لم يدركه أحد من الممتحنين.

7. وقد يذهب البعض إلى أن الكلمات الواردة هنا هي أبعد مما توحيه معانيها المباشرة. وبالإمكان أن نذهب إلى ألف تأويل. مستندين إلى التاريخ، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس اللساني، وعلوم النص والسميائية، والنقد المعاصر، ولكن كل هذا التأويل لا تظهر فائدته إلا بعد الشرح المباشر للألفاظ والتراكيب. وغياب هذه المعلومات تجعل القارئ يجد نفسه أمام درة مخفية في علبة سوداء لا يعرف عنها شيئاً.

3. مستقبل الشعر

1. الشعر مر بمراحل عدة في العُزْب متأثراً بالمدارس المتعاقبة من الكلاسيكية حتى الرومنسية ثم الانطباعية والرمزية، ولم يتغير شكله حتى تبين أن هذا الوزن عبء ثقيل على الناظم، وآلة لجره نحو التقليد والتكلف، فنشأ الشعر الحر في عدة بلدان ولم يبق من بنيته إلا الرجوع إلى السطر. وصعب فهم الشعر مع "فالري" و"المرمي"، ثم جاءت "السريلية" تاركة الكلمة تتدفق من الأعماق خارج الوعي. وبعد بروز الفن التجريدي اتجه الشعر نفسه نحو المزيد من التجريد، وذهب بعضهم إلى بناء القصيدة بصفة عشوائية. فهذا "دادا" يكتب كلمات قصائده في قبة ويخرجها بطريقة عشوائية. وهذا غيره يرجع القصيدة إلى غمغمات صوتية.

وغاب التواصل بين الشاعر والقارئ حتى نفر القراء من هذا الشعر الحديث وأصبحت دور النشر ترفضه ولا تصدر منه إلا ما قل.

2. أما الشعر العربي فإنه مر بمراحل عدة عبر التاريخ. ولما جاءت النهضة فإنه تأثر ببعض الأدب الغربي كالمدرسة الرومنسية، ومع انتشار الثقافة بواسطة الكتاب المطبوع والمجلات والجرائد لانت لغته واقتربت لتسهيل التواصل.

والتحرر من الشكل التقليدي لم يأت إلا سنة 1945 مع نازك الملائكة أو بدر شاكر السياب. والدافع لم يقتصر على تقليد الغرب ولكنه آت من شعور بثقل هذا الوزن وهذه القافية كما ذكرنا ذلك. وبعد فترة طويلة من العطاء برز فيها البياتي والماغوط ومحمود درويش وتجاوبت فيها الجماهير

مع المبدعين. ثم تحرر الشعر من التفعيلة نهائيا وأصبح كالشعر الأوربي الحر. وأطلق عليه اسم قصيدة النثر.

3. ولكن سرعان ما بدأ شعرنا يتجه نحو الغموض مقلدا ما يحدث في الغرب. ونفر القراء من هذا الشعر المفرط في الذاتية والذي لا يعرف شفرته إلا الشاعر.

4. في الغرب لم يبق من الشعر إلا ما ورد في الأغاني وهو شعر ضعيف. أما نحن فشعرنا اكتسى طيفا واسعا من الاتجاهات: من الشعر العمودي التقليدي الذي لا يستطيع أن يضاهي أعمال القدماء إلى الشعر الحر الذي لا يجيد الكثير أوزانه، حتى الشعر النثري. وقلّ الاهتمام اليوم بالشعر حتى أصبحنا نتساءل عن مصيره.

5. من الواضح أن الشعر القديم باق. وزاد اهتمام الناس به بعد نشأة وسائل التواصل الجديدة، التي تجمع بين المكتوب والمنطوق. فالشعر من هذه الناحية باق. فهو مثل الموسيقى الكلاسيكية والألحان القديمة. وإنما القضية تطرح بالنسبة للإبداع حيث نرى ما ينشر اليوم متأرجحا بين تقليد ضعيف متمسك بالعمودي وآخر لا وزن له ساذج أحيانا وغامض تارة أخرى.

4. تدريس الشعر

1. يدرس الأدب في كل المنظومات التربوية في العالم بشقيه النثري والشعري. ولو حاولنا تصنيف المواد التي تلقن في هذه المدارس لرأينا بعضها ذات طابع علمي كالرياضيات والفيزياء وأخرى ذات طابع اجتماعي بيئي كالتيك والجغرافيا، وأخرى ذات صلة بالفن كالرسم والموسيقى، وأخرى بالتواصل كعلوم اللغة وأخرى بالجسد كالترية البدنية.

وكل صنف من هذه الأصناف له علاقة باللغة. واللغة تتجلى في شيئين: القواعد والنصوص التي هي مجال الكلام والتطبيق. هذه النصوص مختارة من إنتاج كبار الكتاب، حسب عدة أغراض، من بينها: الجماليات وربط الحاضر بالماضي. والشعر يمثل جزءا أساسيا من هذه النصوص وميزته أنه قابل للحفظ.

2. ولكن حفظ الشعر أصبح عندنا محاطا بالشبهات وكأنه نشاط متخلف ينتمي إلى التعليم القديم.

ولكن هل يمكن تدريس أي مادة من المواد دون هذا الحفظ؟ لو درسنا مثلا وسيلة الحفظ في مادة مبنية أساسا على المنطق والاستدلال كالرياضيات لرأينا أن التلميذ منذ نعومة أظفاره يحفظ ألف شيء وشيء. فهو يحفظ الأعداد نطقا وكتابة، ثم جداول الضرب من الاثنين حتى التسعة أي ما يقرب من عشرين مساواة، ثم يحفظ خوارزميات العمليات الأربعة، وهو في الهندسة يحفظ أسماء الأشكال والقوانين التي تعطي مساحتها وطول محيطها ويتطرق بعد هذا إلى النظريات الكبرى، فيحفظ

نظرية فيثاغورس والقوانين الخاصة بالمتطابقات الشهيرة ثم القوانين التي تمكنه من حل المعادلات. ويستمر هذا الحفظ حتى أعلى المستويات.

أما المواد الإنسانية وعلوم البيئة فالحفظ فيها يأخذ قسطاً أوفر من الرصيد المعجمي الموجود في المواد العلمية.

وبالنسبة لعلم النحو والصرف فالمصطلحات كثيرة والتلميذ مجبر على استيعابها واستحضارها كلما طُلب منه إعراب جملة أو تصريف فعل أو إنشاء نص.

3. ويبقى الشعر متميزاً على النثر وعلى غيره من كل أنواع النصوص بالوزن. فما هو موزون يحفظ بسهولة كما ذكرنا ذلك مراراً. ونجد أنفسنا هنا أمام تناقض: ما هو مصنوع للحفظ لا يحفظ، وما هو غير مصنوع للحفظ يحفظ!!

4. من الأمور التي تساعد على الحفظ يوجد الفهم. فالنظريات الرياضية تفهم بسهولة أكثر إذا برهن عليها. وهذا يقودنا نحو العيب الآخر الذي يعتري تعليم الشعر عندنا وهو نقص الشرح للنصوص الشعرية. فكل كلمة غريبة لا تشرح وكل تركيب معقد لا يدرس يترك في نفس التلميذ انطباعاً يجعله يضع في كفتي الميزان المواد العلمية المبنية على الفهم والمواد الأدبية المبنية على الجماليات وحدها. وهكذا يغيب عن التوازن ما يصبو له التعليم وهو تكوين الفرد خلقياً وثقافياً بصفة شمولية.

القسم الثالث: العربية والنهضة

1. باب العربية ووسائل والإعلام

1. الحضارة ووسائل الإعلام
2. الطباعة وتطور المكتوب
3. الصحافة وحادثة اللّغة
4. السينما واللّغة المحكية
5. السينما العربية بين المشرق والمغرب
6. المذيع واللّغة المنطوقة
7. التلفاز بين السمع والرؤية
8. التلفاز العربي وعصر الفضائيات

1. باب العربية ووسائل والإعلام

1. الحضارة ووسائل الإعلام

1. من الواضح أن الحضارات الكبرى نشأت بالتوازي مع تقدم المعارف فأثرت المعارف في العمران وفي العادات والفكر، وأثرت بدورها الوسائل المادية في المعارف. ومن البين أن المعارف تتجسد في اللغة. فإن توحدت اللغة وانتقلت من المرحلة المنطوقة إلى المرحلة المكتوبة وساعدت في نشرها الكتب ومؤلفوها ومدونوها وموزعوها ووسائل نقلها فإنها ستكتسي وظائف عدة كلها تصب في تطور الآداب والعلوم جاعلة منها أداة حضارة حقيقية.

2. وسائل التواصل تطورت كثيرا في القرون الأخيرة مما قاد المفكر الكندي "مارشال ماك لوهان" 1911، 1980" إلى إنشاء نظرية جديدة لها مؤيدوها ومعارضوها، نظرية تجلت في مؤلفاته التي نذكر من بينها "مجرة جوتنبرج، 1962"، "فهم وسائل الإعلام" 1964، "الحرب والسلام في القرية العالمية" 1970.

3. أطروحة ماك لوهان مبنية على فرضية أساسية هي أن وسائل الإعلام المادية أو ما يسمى اليوم بـ"الميديا" هي التي تحدد طرائق تفكير الإنسان وأحاسيسه ومواقفه في المجتمع.

ومن بين الوسائل ذكر الباحث الكتابة والطباعة والهاتف والسينما والراديو ولكن أيضا العجلة والسيارة والإنارة وحتى اللباس والمنزل. وحدد ماك لوهان ثلاثة أطوار للإنسانية:

أ. طور الكلام والمقصود به التواصل الشفوي

ب. طور الطباعة بعد اكتشافها من طرف "جوتنبرج"

ج. طور الإلكترونيات والحاسوب.

والذي جعل الناس يهتمون بأعماله هي كونه تنبه إلى وسائل التواصل الحديثة التي جعلت حسبه العالم قرية صغيرة.

4. أما ربطه وسائل الاتصال بالحواس فهو ما نعتبره ارتجالا غير مبني

على العلمية. ومن ذلك تصنيفه "الميديا" إلى بارد وساخن.

فالكلام حسبه "ميديا بارد" لأنه يتطلب من السامع جهدا كبيرا للفهم.

أما الكتاب والراديو والسينما والتلفاز فهي "ميديا ساخنة" لكونها لا

تتطلب من المتلقي جهدا كبيرا.

ولعمرك كيف يمكن اعتبار كتاب في الرياضيات العالية أو الفيزياء

النووية وسيلة إعلام باردة تتطلب جهدا أقل من الدردشة بين الأصدقاء؟

السلبيات التي لاحظناها عند "ماك لوهان" هي التعميم المفرط. فمن

الواضح أن دمج الوسيلة في الإعلام نفسه مبدأ لا يستطيع أي لساني أن

يوافق عليه كما أن ربط الإعلام بالحواس وتصنيفه في حاجة لمزيد من

التمعن.

رغم كل هذه فإننا نلاحظ أن فكرته التي تجعل من العالم قرية صغيرة تتحقق يوما تلو الآخر.

5. التعبير عن الأفكار والأحاسيس وإيصالها للغير ينعت تارة بالتواصل communication وتارة بالإعلام information. والسؤال الذي يطرحه الإعلاميون اليوم علينا هو التمييز بين المفهومين.

يعتقد الكثير من الباحثين أن "التواصل" مرتبط بـ"الحوار"، أي بالتلقي والإجابة حيث المرسل والمرسل إليه يتبادلان الأدوار. أما الإعلام فهو في رأيهم يجري في اتجاه واحد، ولا يتطلب رد المتلقي على ما يصله من معلومات.

فالتلفاز والجرائد تهبنا معلومات لا يطلب منا مبدئيا الرد عليها. فنحن هنا أمام "إعلام" وليس أمام تواصل.

6. أما اللسانيون فإنهم يشترطون في التواصل أن يشتمل على النية في إبلاغ المعلومات. فالسحاب المتراكم ليست له أي نية في التواصل معك حتى وإن أعطاك معلومات عن حالة الجو، كما أن الأرض التي ذبل نبتها تخبرك بالجفاف دون قصد منها، وبشرة شخص ما تخبرك عن جنسه دون أن يبوح لك ذلك الشخص بأصله. كل هذا يرينا الفرق بين تواصل حقيقي وإعلام مجرد.

7. غير أن المذيع أمام الميكروفون عند نشرة الأخبار ليس كالسحاب الصامت فهو ينوي إبلاغ معلومات إلى من يريد سماع هذه النشرة. فنحن هنا أمام تواصل حقيقي حسب النظرة اللسانية خلافا لاعتقاد الإعلاميين.

2. الطباعة وتطور المكتوب

1. تاريخ الطباعة قديم جدا ولكنه لم يأخذ شكله الحديث إلا مع الألماني جوتنبرج Gutenberg في مدينة ماينوس سنة 1440. بعد هذا التاريخ انتقلت فنون الطباعة إلى بلدان كثيرة من بينها إيطاليا وفرنسا وهولندا. ففي الفترة ما بين 1455 و 1500 طبع أكثر من 40000 عنوان، معظمها مكتوب باللغات القديمة التي كانت أساس الثقافة الغربية، والبعض القليل منها فقط حرر باللغات المحلية الدارجة التي بدأت تدستر في العديد من البلدان.

2. توازى تطور الطباعة مع تطور اللغات الأوربية وانفصالها عن لغة الأم التي كانت اللاتينية. ولا بأس أن نسلط الضوء على اللغة الفرنسية ومسايرتها للكتاب المطبوع.

الفرنسية كانت لغة الملك وحاشيته، وأصبحت لغة إدارية بواسطة مرسوم صدر سنة 1539. ثم انتشرت هذه اللغة على شكل قديم وعكف الأكاديميون على تعييدها وإعطائها صبغة علمية انطلاقا من اللغات القديمة. ويعتبر القرن الخامس عشر، قرنَ الفرنسية القديمة التي مثلها العديد من الشعراء واستمرت اللغة في التطور ولم تقعد إلا في القرن السابع عشر مع نشأة الأكاديمية الفرنسية سنة 1639. ورغم هذا، فإنه لم يكن يتكلم الفرنسية سنة 1794 إلا ربع الفرنسيين، أما الباقي فكانوا يستعملون لغات جهوية مختلفة.

أما المعاجم التي ضببت مفردات هذه اللغة فقد جاءت متأخرة، فمعجم "ليتيري" صدر سنة 1873 ثم تلاه معجم "لاروس" سنة 1876. ومرت

سنوات وعقود واللغة الفرنسية مستقرة في بنيتها وفي معظم مفرداتها. وقد تصدر كل سنة نسخ جديدة من المعاجم الشائعة، ولكن مهمتها لم تتعد استقبال المفردات الحديثة الآتية من التطور العلمي والتكنولوجي.

أما الفارق بين اللغة المحكية واللغة الكلاسيكية فإنه لم يتقلص إلا بواسطة إجبارية التعليم الذي سن بقرار "جول فيري" سنة 1882.

ونلاحظ من خلال هذا أن الإعلام والسياسة الثقافية والرغبة في توحيد الوطن هي العناصر التي أنشأت اللغة وثبتتها ووسع رقعة استعمالها. وهذا المسار يذكرنا بنشأة الفصحى التي رسّمت واستقرت قبل الفرنسية ببضعة قرون.

3. أما تاريخ الكتاب العربي المطبوع فقد مر بمرحلتين: مرحلة الطباعة في الغرب التي كانت مبكرة ومرحلة الطباعة في المشرق التي تلتها بعد مرور لأي من الزمن.

أول كتاب طبع بالحرف العربي هو "رحلة إلى القدس" وذلك سنة 1468م بألمانيا. وتلت هذا الكتاب مؤلفات دينية قصدها التنصير في المشرق، ثم طبعت كتب لغوية مثل "الأجرومية" التي ترجمها المستشرق الإيطالي "رينالدي" إلى اللاتينية وطبعها سنة 1592م. وكانت ألمانيا وإيطاليا وإنجليتيرا وفرنسا من البلدان التي اهتمت بطباعة المخطوطات العربية تحت أيدي المستشرقين.

4. أما الطباعة في البلدان العربية فإنها جاءت متأخرة وذلك بعد حملة نابليون إلى مصر. جاء الجنرال الفرنسي سنة 1798 ومعه ثلاث آلات طباعة

حملتها البواخر التي قادتة إلى الإسكندرية، وطبعت بواسطتها كتب ومنشورات بالعربية والفرنسية كان الغرض منها إعلاميا ودعائيا. ولم يطل مكوث نابليون في المشرق فاضطر في الأخير إلى الهروب سنة 1801 ونقلت معه المطابع الثلاث إلى فرنسا.

5. بعد رحيل نابليون بعشرين سنة أنشأ "محمد علي" المطبعة الملكية المعروفة بمطبعة "بولاق". فبعث خبراء إلى إيطاليا درسوا هناك فنونها واستعان بطلاب الأزهر لتسيير هذه المطبعة التي كانت متكاملة من جميع النواحي. ثم تتالت المطابع في مصر والشام، وحتى في الهند واهتمت بنشر التراث القديم الذي كان مخطوطا وحمته من الضياع. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأدباء والمثقفين اطلعوا على التاريخ القديم ودرسوه وفهموه وبدأوا بدورهم يؤلفون في شتى المجالات.

وخلال هذه الفترة أنشئت مدارس حديثة مزودة بالكتب المطبوعة، وشيدت العمارات الحديثة والطرق المعبدة والسكك الحديدية والمطارات، مما جعل المشرق العربي ينتقل من عصر الانحطاط إلى عصر النهضة.

6. أما المغرب العربي فإنه بقي بعيدا عن هذه النهضة لطول استعمارها، وقساوته، وهدمه للقيم التي تحلى بها. ولكن الطباعة لم تكن عديمة الوجود وكانت في معظمها حكرا على الفرنسيين.

أول مطبعة دخلت الجزائر جاءت على ظهر سفينة حربية سنة 1830 وكانت تطبع الجريدة العسكرية، ولقبت آنذاك بالمطبعة العسكرية ثم تحولت إلى المطبعة الرسمية. وفي سنة 1835 أدخلت مطبعة لقبت بالمطبعة الشرقية

طبعت ونشرت إلى جانب الكتب الفرنسية مخطوطات قديمة أشرف عليها مستشرقون. ولكنها توقفت عن نشر الكتاب العربي سنة 1913.

7. أما أول مطبعة عربية جزائرية فهي تابعة لمؤسسة "رُدوسي" التي أسست سنة 1896 على شكل مكتبة تستورد الكتب والمجلات من المشرق. ثم أضيفت لها مطبعة نشرت العديد من كتب التراث بالعربية أو مترجمة للفرنسية. وبعد الحرب العالمية الثانية أنشأ الجزائريون مطابع بقسنطينة ومستغانم ووهران أصدرت إلى جانب الكتب جرائد جمعية العلماء المسلمين كالבصائر والشهاب أو جريدة "البلاغ الجزائرية" التي كانت في البداية لسان الطريقة العلوية.

وقد ساهمت الطباعة العربية بالجزائر في الحفاظ على اللغة العربية والمعتقدات. وكانت دافعا قويا لنشأة المقاومة.

3. الصحافة وحادثة اللّغة

1. كانت الطباعة أساس تغيير كبير في مجال الكتاب الذي انتقل من الشكل المخطوط إلى شكل أكثر ديمومة وأقرب إلى الجمهور ولكنها كانت أيضا السبب في نشأة نوع جديد من التواصل يجسده مطبوع جديد من ناحية الشكل والمحتوى يسمى "الجريدة" أو "الصحيفة".

2. الصحافة بدأت وتطورت في الغرب. وأجمع الدارسون على أن للصحافة المكتوبة سمتين أساسيتين: الأولى أن تكون مطبوعة بواسطة الآلة والثانية أن تكون دورية. ويخرج عن هذا المجال كل تواصل جماهري أذيع

بواسطة الصوت وكل ما صدر مخطوطا باليد، وكل ما كان ينشر بطريقة غير منظمة كالمصقات في الجدران التي كانت من صلاحيات الملك وكانت تسمى "إعلانات" أو "ملصقات". أما أول دورية برزت إلى الوجود فهي أسبوعية ذات أربع صفحات عنوانها لارولاسين la Relation أو العلاقة، صدرت في مدينة ستراسبورغ سنة 1605.

ثم برزت سنة 1631 الدورية الفرنسية الكبيرة لاغازيت La Gazette لصاحبها "تيوفراست رينودو". وبصفة موازية صدرت في هولندا وألمانيا وانجلترا عدة دوريات كانت في البداية تعني بحدث واحد رئيسي. ثم تطورت بنيتها وأصبحت تعطي المعلومات الخاصة بالسياسة والاقتصاد والأدب.

3. ولكن نشأة الصحافة الحديثة لم تظهر إلا في نهاية القرن التاسع عشر. ولكون هذه الوسائل الاتصالية موجهة للجمهور العريض بغرض الإعلان المباشر والترفيه فإن أسلوبها كان مبسطا يلائم القارئ العادي، وبإمكاننا القول بأنها رسخت اللغات الأوروبية حديثة النشأة وساهمت مع التعليم في نشرها وتوحيد أوطان عدة حولها.

ومع تقدم وسائل الطباعة ونشأة تقنيات "الأوفسيت" ثم "الروتوتيب" ازداد السحب في وقت وجيز وظهرت المجلات الملونة التي أضافت الصورة إلى النص. وجاء بعد هذا فن الكاريكاتور والمجلات المرسومة أو الكوميكس المخصصة للأطفال. كل ذلك يتواز مع نشأة السينما والتلفاز.

4. هذا عن الصحافة الغربية أما الصحافة المكتوبة بلغة الضاد فإنها نشأت متأخرة عن قرينتها الأوروبية ولم تر النور إلا في مطلع القرن التاسع عشر. وكان يطلق عليها اسم "الوقائع" أو "غازت" تقليدا للأوربيين أو "أحداث" أو "جرنال" ثم اختير المصطلح القديم "صحافة". ومن الذين أنشأوا أول الصحف خليل الخوري سنة 1858. ثم صدرت جرائد أخرى أشهرها دون شك الأهرام المصرية.

5. وعلينا أن ننظر إلى الدور الذي لعبته الصحافة بالنسبة للغة فالجدير بالذكر أن كل هذه الصحف كانت تصدر بالفصحى وبلغة سليمة بسيطة مما يرينا أنها كانت من بين الوسائل التي حافظت على لغة الضاد وذلك عبر بساطة لغتها ومواضيعها التي تصب في اهتمامات الشعب. كما أنها كانت الوجه الذي تجلت فيه العربية الحديثة المشبعة بمصطلحات العصر. أضف إلى هذا وظيفتين أساسيتين هما: الوظيفة السياسية والوظيفة التعليمية. الوظيفة السياسية برزت في المقالات التي حاربت الاستعمار والاستبداد بصفة صريحة في المشرق، وبصفة خفية في المغرب.

أما الوظيفة التعليمية فهي متعلقة بالقراءة التي يستوعب من خلالها القارئ معجم اللغة وصرفها ونحوها. وسهولة نصوص الصحافة تجعلها في متناول كل من كان يستطيع تشفير رموز الكتابة حاملا ملكة لغوية منبعها العامية و/أو الفصحى.

أضف إلى هذا أن المكتوب الذي كان أساسه تراث منقطع عن الحاضر، أصبح في الصحف مكتوبا يعبر عن البيئة الحديثة والعيش اليومي وتطلعات الأفراد والجماعات.

6. ومن الصحف ما هو أدبي، وفيه تجلت أقلام كبرى مثل طه حسين والعقاد والمازني والرفاعي في مصر، وابن باديس والأخضر الإبراهيمي في الجزائر. وكانت موضوعات مقالاتهم مختلفة، بعضها سياسي وبعضها نقد وإصلاح، وبعضها إبداع في مجالي الشعر أو النثر الذي أخذ شكل القصة القصيرة أو الرواية المسلسلة التي قلدت نظيرتها الغربية وأصبحت مطلوبة من طرف القراء.

7. وفي العرف تخصص كلمة المجلة لما يصدر أسبوعيا أو شهريا أو حتى سنويا، وتخصص كلمة الجريدة لما هو يومي. والصنفان يختلفان من عدة جوانب.

فالمجلات تعني بالسياسة والثقافة والاقتصاد وشكلها يشبه الكتاب. فورها جيد وغلافها مستقل، ومقالاتها متسلسلة يمضيها أصحابها.

أما الجريدة اليومية فهي إخبارية وتختلف عن الكتاب من ناحية الحجم والورق. وأما من ناحية التأليف فنراها جماعية يكتب فيها متخصصون في السياسة أو الأدب أو الرياضة أو الاقتصاد أو أي من المواضيع التي ترعي اهتمام القارئ. والصحافيون نوعان: منهم الموظفون الذين يأخذون رواتبهم من مداخلها ومنهم الأقلام الخارجة عن الطقم المستمر والذين يكتبون بصفة غير دائمة.

وبخصوص بنية الجريدة فهي مغايرة تماما لبنية الكتاب. فهي ليست مجلدة ولا تحمل صفحة للغلاف، ونصوصها المرفقة بعناوينها الكبرى وأحيانا بالصور مبعثرة في فضاء الصفحة حسب منطقية لا يفهمها إلا المصنّف. كما أن اختلاف المقالات يجعل من القارئ يختار ما يريد قراءته، ونادرا ما تراه يقرأها بأكملها.

4. السينما واللغة المحكية

1. السينما رأت الوجود مع الإخوة "لوميير" سنة 1891. وكانت صامتة في مراحلها الأولى ثم أضيف الصوت إلى الصورة سنة 1930، وتحسنت الصورة مع بروز الأشرطة الملونة ثم استعمال الشاشات الكبرى.
 2. اضطرت السينما منذ نشأتها لأخذ موقف من اللغة ومن الأدب. أما الأدب فإنها أخذت منه الحكي منذ البداية. فالأفلام الصامتة كانت قصصا كاملة مع أبطالها ووقائعها ووصفها. وفي هذا الصدد فإنه بالإمكان أن نتكلم عن "لغة سينمائية" لها خصائصها كما للأدب المكتوب خصائصه.
- وعلينا أن نذكر بأن الرواية المكتوبة كانت معروفة منذ زمان قديم. يقال إن أول رواية ألفت كانت من طرف الياباني "مورازاكي شيكيبو" عنوانها "أخبار غانجي". أما في الغرب فإنه يمكن اعتبار "سرفنتيس" وقصة "دون كيشوت" "1605-1615" انطلاقا للرواية المستقلة عن الملحقات الموجودة عند "هوميروس" مثلا. واشتهرت الروايات الرومنسية، ثم جاء عصر الروايات

الواقعية مع "بالزك" 1850-1789 وفلوير 1821-1880 و"زولا" 1840-1902 و تولستوي " 1828-1910.

والرواية في بداية القرن العشرين كانت الأدب السائد وكانت تتابع بشغف في الكتب وحتى الجرائد. فلا غرابة إذن أن تميل لغة السينما إليها مهمشة أصنافا أخرى كنشرة الأخبار أو الفيلم الوثائقي.

3. الحوار في السينما والحبكة القصصية يقودان إلى مقارنة السينما بالمشرح. ولكن المسرح آنذاك مبني عموما على لغة أدبية قد تكون شعرا موزونا كما هو الشأن عند "راسين" أو "أحمد شوقي" أو "شكسبير" وقد تكون نثرا راقيا كما هو الشأن عند "مولير" الذي قرنت الفرنسية باسمه.

المسرحية الكلاسيكية تحمل قبل كل شيء بصمات مؤلفها بحيث أن للمسرح رجلا في المكتوب وأخرى في المنطوق. والدليل على هذا أن كتاب المسرحيات يدرسون في الثانويات والجامعات مع باقي الأدباء.

أما السينما فإنها موجهة إلى الطبقات الشعبية ولغتها أكثر مرونة وبساطة ولا يلعب فيها كاتب السيناريو الدور الأساسي الذي يلعبه مؤلف المسرحية.

ومن جهة المقام فالمسرح محصور في فضاء الخشبة حتى وإن تغير الديكور من مشهد لآخر، أما الأفلام فإن صورها تنقلك إلى عوالم قد تجهلها تماما، فتسافر من زمانك إلى زمان مضى أو حتى زمان آت في أفلام الخيال. وقد تسكن في قرية صغيرة لا تعرف من الحداثة شيئا وإذا بك تجد نفسك في قلب نيويورك وسط ناطحات السحاب تعيش مع الأمريكان

حياتهم وتقاليدهم وتاريخهم. ولم تكن رأيت شيئا من الحيوانات غير الحمير والخيول والجمال فإذا بك تشاهد الفيلة في الأدغال والتّم في البحيرات والحيتان في اليم. وكأنك ابن بطوطة زمانك.

4. اللغة المنطوقة في الأفلام هي جزء من الرسالة التي تجمع بين الصورة والصوت. هي لسان له هدفان: إفهام المتفرج ومراعاة البيئة التي يعيش فيها أبطال الفيلم. وتغليب الفهم يظهر في نمطين من الأفلام: الأفلام التاريخية والأفلام الأجنبية المدبلجة.

في الأشرطة التاريخية التي تدور أحداثها في القرون الوسطى الغربية مثلا لا يتكلم الأبطال لغة عصرهم ولكنهم ينطقون بلغة المشاهد.

أما في الأفلام الأجنبية المدبلجة صوتيا فاللغة هي أيضا لغة المتفرج. فالأمريكي "جيري لوييس" يتكلم في أفلامه الهزلية بالإنجليزية الأمريكية في بلده، وبالفرنسية في فرنسا، وبالإيطالية في إيطاليا، والإسبانية في إسبانيا، والروسية في روسيا، واليابانية في اليابان. وبالمقابل فإن فُرسان "الساموراي" اليابانيين ينطقون بغير لغتهم في بلدان أخرى.

والدبلجة فن يُطلب فيه محاكاة اللهجات وتتبع حركة الشفتين. فللهجة "جيري لوييس" الهزلية تختلف تماما عن لهجة الساموراي الخشنة. ولكن رغم هذا يبقى النظام اللغوي لا يتغير في الغرب إلا تغيرا طفيفا.

5. وقد تكون الدبلجة بواسطة ترجمة مكتوبة أو عنونة تظهر في أسفل الشاشة sous-titrage. وهي تقتضي من المتفرج كفاءة في القراءة. كما أنها ترجع المكتوب إلى الواجهة بحيث أن المشاهد توصل إليه ثلاثة رسائل:

أ. الصورة بمجملها خارج مجال الصوت.

ب. أصوات بشرية يدرك من خلالها دلالات تحتويها نبرة الناطق التي تعبر على أحاسيسه كالمحبة أو الكراهية، كالرضى أو الإنكار كالغضب أو الهدوء.

6. وعلينا أن نلاحظ أن الأفلام الأجنبية التي تعرض على المواطن العربي في معظمها لا تنقل إلى لغة الضاد إلا بالمكتوب النمطي. وهنا نرى ضياع فرصة ثمينة للفصحى التي لو استُعملت بصفة شاملة كدبلجة صوتية لكثرت استعمالها في الخطاب اليومي. وذلك نتيجة لغريزة التقليد عند الناس.

7. ولكن اللغة مستويات، وهذا ما يجب أن يراعيه المخرج وصاحب السيناريو. فمن ناحية اللهجات المحلية رأينا المخرجين الإيطاليين يميزون أحيانا بين لهجة روما ولهجة صقلية، ورأينا الفرنسيين في أفلام "مارسيل بانول" التي بطلها الممثل "فيرنانديل" يستعملون لهجة الجنوب. أما "فيليب" أوديار فقد اشتهر بلغة "الأرقو" المستعملة من قبل اللصوص. أما السينما الأمريكية فإنها استعملت طيفا كبيرا من اللهجات يخص رعاة البقر في البوادي، والمافيا الإيطالية في شيكاغو، والسود في "هرليم"، والمكسيكيين حيث وجدوا.

ولم يخرج المصريون عن القاعدة فقد ميّزوا في أفلامهم بين لهجات القاهرة والصعيد والجنوب والإسكندرية. كل ذلك حفاظا على الواقعية.

5. السينما العربية بين المشرق والمغرب

1. السينما العربية نشأت مصرية ولم تكن لغتها فصيحة إلا في الأفلام التاريخية، أما جل الأفلام فإنها كانت منطوقة باللهجة المحلية. وعلينا أن نلاحظ أن هذا الاختيار لم يكن ناتجا عن سياسة لغوية فُرِضت من سلطة عليا على أهل السينما وإنما كان اختيارا آتيا من كون المخرجين فضلوا الحوار الواقعي على الحوار الأدبي وذلك من أجل التواصل مع جمهور يرغب في إيجاد لهجته المعبرة على البيئة التي يعيش فيها.

2. وزعت الأفلام المصرية في كل العالم العربي شرقه وغربه. وأصبح أهل العربية يكتشفون على أرض الواقع والفن "الازدواجية اللغوية" أو "الديغلوبسيا"، فيلاحظون اختلاف اللهجات واثلافها فيفهمونها من خلال المقارنة مع لهجتهم ومن خلال السياق والأحداث التي يعبر عنها الخطاب الثاني وهو خطاب الصورة.

3. الأفلام المصرية كانت محبوبة عند الجزائريين والمغاربة عموما أيام الاستعمار. لقد أبرزت لهم على أرض الواقع وجود بلدان عربية مثل بلدانهم تنعم بالحرية ويحدثاثة لا يعيشها في أوطانهم إلا الأوروبيون. فكان يجول داخل نفس الجميع هذا السؤال: "ولماذا لا نستقل ونتحرر ما دام هذا الاستقلال وهذه الحرية موجودان عند جيراننا؟".

4. العديد من الأفلام المصرية كانت غنائية مثل "الوردة البيضاء" التي بطلها "محمد عبد الوهاب"، مما ساعد، بالتوازي مع الأسطوانات

والغراموفون، على انتشار الموسيقى الشرقية في المغرب مع ألقانها وفنانيتها، وأصبحت الآذان تستسيغ هذه الألحان وتطرب لها. وأدى هذا إلى تعلق المغرب بالمشرق وبلورة وحدة كانت في القرون الوسطى موضوع خصام.

5. الأفلام المصرية أيقظت وطنية الجزائريين وهذا ما لم يخف على الحكام الفرنسيين.

في شهر جوان 1952 عرفت ثلاثة أفلام مصرية الرقابة ومنع صدورها، وفي سبتمبر 1952 جاء تقرير من المخابرات العامة بجماعة يذكر حماس مشاهدي "سيدي عيش" الذين صفقوا للقطات سينمائية موجودة في فيلم "ابن عنتر" الذي ينتهي بنشيد يمجد الاستقلال. وانتهى التقرير بهذه الجملة: "ينبغي إذن إبعاد الشبان المسلمين عما يمجد العروبة والإسلام."

وفي جانفي 1953 أثار الفيلم "مجد الإسلام" ضجة كبيرة مما جعل وزير الداخلية المكلف بالجزائر يرأسل رئاسة الحكومة الفرنسية مطالبا بسحب الفيلم قائلا "إن هذا النوع من الأفلام يمثل خطرا حقيقيا على أمن البلاد".

وفي مدينة وهران سنة 1959 كتب الجنرال "غامبيز" ما يلي: "عرض الأفلام المصرية غير لائق. هذه الأفلام توظف عند المشاهدين أحاسيس حيث العرق والدم والفكر الإسلامي والوطنية والعروبة موجودة. وحتى نتأكد من هذا فعلينا أن نشاهد التصفيقات الحادة عندما يظهر العلم المصري".

خلال سنة 1958 بلغت حرب التحرير الذروة في العنف، مما قاد الجنرال "شال" القائد العام للقوات الفرنسية بالجزائر إلى الدعوة إلى إبعاد الأفلام المصرية، وحثته أن هذه الأفلام التي تدور معظم أحداثها في القاهرة

تصف بلدا حديثا متطورا مما يجعل المشاهدين "المسلمين" يقارنون بين حياتهم وحياة المصريين.

وخلال السنة نفسها كتب الجنرال "لوت" من قسنطينة طالبا سحب فيلم عنوانه "لبناني في الجامعة" وهو يروي قصة شاب لبناني يلتقي بزملاء مصريين فيعرب هؤلاء عن فرحتهم بلقاء الأخ العربي ويقول الجميع: "لبنان ومصر بلدان عربيان، يحيى العرب". وقال في رسالته: "لقطات مثل هذه تغذي الروح العربية عند الشبان المسلمين وهو ما نريد تجنبه".

وفي مدينة سكيكدة خلال السنة نفسها أيضا كتب الجنرال "ديلاري" تقريرا حول عرض فيلم مصري عنوانه "بنت حاز" أي "بنت المالية" حيث صفق المشاهدون عند رؤية العلم المصري.

6. أما السينما الجزائرية نفسها فإنها نشأت كولونيالية مع شخصيات عربية نمطية يلعب دورها ممثلون وذلك في إطار ديكور خرافي به الرمال والنخيل والراقصات. وهو ما ورد في فيلم الرغبة le désir سنة 1928

7. أما الأفلام الجزائرية الحقيقية فإنها نشأت مع الثورة التحريرية وكانت وثائقية. ففي الولاية الأولى خلال السنة 1957 كون بعض المجاهدين من جيش التحرير فرقة تصوير وأخرجوا أفلاما تصف الممرضات في الجيش وعمليات قام بها الجنود. ونالت هذه الأفلام اهتماما كبيرا عند البلدان الاشتراكية.

وابتداء من 1960 أُسِّسَتْ مصلحة للسينما تحت إشراف "الحكومة الجزائرية المؤقتة". أنجزت بعض الأفلام نذكر منها: ساقية سيدي يوسف، اللاجئون، جزائرنا، صوت الشعب، بنادق الحرية، خمسة رجال وشعب.

8. بعد الاستقلال نشأت سينما جديدة نذكر منها "الليل يخاف الشمس" لمصطفى بديع و"ريح الجنوب" لمحمد الأخضر حامينة، و"وقائع سني الجمر" للمخرج نفسه. و"عطلة المفتش الطاهر" لموسى حداد.

ولو أحصينا عدد الأفلام لرأيناها قليلة لا تتعدى الأربعة أفلام في السنة. وذلك راجع لكون السينما الجزائرية بقيت محلية لا تصدر إلى الخارج بحيث أن تمويلها هو في الحقيقة رهن إعانة الدولة.

أما من ناحية اللغة فإن السينما الجزائرية استعملت اللهجة المحلية، بحيث يمكن القول بأنها عززتها كما عززت السينما المصرية لهجتها.

6. المذياع واللغة المنطوقة

1. نشأة المذياع أو الراديو كانت طويلة. تعود ربما إلى أبحاث الفيزيائي "مكسويل" الذي برهن عام 1850 على أن الموجات الكهرومغناطيسية بإمكانها الانتشار في فضاء حر. ثم جاء الهاتف ولغة المورس، ومر نصف قرن قبل اختراع الإيطالي "ماركوني" عام 1901 لأول جهاز استقبال لاسلكي.

2. في فرنسا بدأت وزارة الدفاع تبث نهاية 1903 من أعلى برج "إيفل" حصصا عسكرية متقطعة. ولم يصبح البث متصلا ومدنيا إلا بعد الحرب

العالمية الأولى وذلك سنة 1921. واشتهرت آنذاك محطة "راديو لا" التي كانت تبث البرامج الموسيقية ونشرات الأخبار والمحاضرات العلمية من جامعة "السربون".

وفي مشارق الأرض ومغاربها أنشئت العديد من المحطات تنشر لغات السكان وثقافتهم وتعبّر عن رغباتهم وتسليهم وترشدهم.

3. وللمذيع خصائص يتميز بها. فهو مبني على الصوت وحده ومرتبب بجهاز ثابت أو منقول يتصرف فيه صاحبه كما يريد. أما برامجه فهي متنوعة تشمل الغناء والمسرح والتعليم والإرشاد. وقد تصدر كل هذه البرامج نشرة الأخبار التي تذاع بصفة منتظمة مع بداية كل ساعة تقريبا.

واكتسى المذيع أهمية كبرى على المستوى السياسي. فالألمان كانوا يذيعون الأخبار من باريس التي استعمروها. أما ديغول فإنه كان يخاطب الفرنسيين من خلال البي بي سي في لندن.

4. أما بالنسبة للعربية فإن الإذاعة الأولى أسست في مصر سنة 1925. وهي السنة التي أنشأ فيها الفرنسيون إذاعتهم في الجزائر. أما البي بي سي باللغة العربية فهي لم تنشأ إلا خلال سنة 1938.

5. بالنسبة للجزائريين لعب المذيع دورا هاما. فكان مصدر ثقافة واطلاع على العالم العربي وعلى غيره من العوالم. كما أصبح سلاحا قويا خلال حرب التحرير.

6. بتاريخ التاسع عشر من ديسمبر 1956 أنشئت الإذاعة السرية الجزائرية التي كانت تبث من الثامنة حتى العاشرة مساء. واشتهر من المذيعين

المجاهد "عيسى مسعودي" الذي كان بحماس منقطع النظير وبلغة فصيحة يشجع الأبطال في الجبال والمواطنين في منازلهم. ويمكن للقارئ أن يرجع إلى تسجيل بعض حصصه وهي اليوم متاحة في "يوتيوب". وهذه بداية إحدى الحصص:

"أيا شعبنا الجزائري المجيد، يا أبطالنا من جنود ومسبلين وفدائيين في كل مكان، في السهول والوديان، في الفيافي والمدن والقرى، ويا من تلقنوا العدو في كل يوم درسا.."
ويختم خطابه بقوله: "إن الله معكم والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار، والله أكبر".

وكان لهذا الخطاب وقع في الأنفس لا مثيل له. وهو أيضا دليل على أن مجال الفصاحة الحقيقية لا يمكن أن يكون إلا بلغة الضاد في بلد عشقها أهله.

7. التلفاز بين السمع والرؤية

أ. عندما تتغير وسيلة التواصل فإن التواصل نفسه يتغير. والتلفزيون الذي معناه الأصلي الرؤية عن بعد، يجمع في الحقيقة بين الصورة والصوت، وبهذا فهو ينتسب من ناحية الصورة إلى السينما ومن ناحية طريقة الاستقبال الراديو. وقد أخذ إذن شيئا من وظائف كل منهما. ولكنه طورهما ونوعهما كثيرا مع مرور الزمن والتغير التكنولوجي.

2. نشأ التلفاز في الغرب بعد أبحاث طويلة دامت ما يقارب نصف القرن. ولكن الشركات التلفزيونية الأولى لم تنشأ إلا في الأربعينات من القرن الماضي. وتعطلت معظمها خلال الحرب العالمية الثانية. أما تعميم استعمال التلفاز وغزوه المنازل فإنه بدأ في الخمسينات.

3. سنة 1955 أحصيت 493 محطة في الولايات المتحدة و33 مليون جهاز استقبال. وتطور التلفزيون عندما أضيفت له الألوان ثم عندما أصبح الإرسال يستعمل الأقمار الصناعية والإنترنت.

4. وظائف التلفاز تظهر من خلال أصناف البرامج التي يمكن تصنيفها كما يلي: برامج الإعلام، برامج الشباب، برامج الترفيه، برامج السينما، برامج الثقافة، البرامج التعليمية، البرامج الدينية

5. برامج الإعلام مخصصة للكبار. وهي تذيع الأخبار غالبا في أوقات محددة. وإلى جانب كونها نافذة على العالم فهي مصدر لنشر الثقافة العامة عند الجميع. وقد تخصصت العديد من المحطات فيها مثل "سي إن إن" و"أورونيوست" و"فرانس 24". وهذه المحطات تذيع بلغة البلد ولكن أيضا بلغات أجنبية.

مع العلم أن نشرات الأخبار مسبقة دوما بنشرة الأحوال الجوية.

6. برامج الشباب تنصدرها الرسوم المتحركة. في القديم سيطر على هذا القطاع "ديسنى" وأبطاله أمثال ميكى، وتوم وجيري، ودينجو. وجاءت بعده

أنواع أخرى من الرسوم تكون حلقات تامة أو متسلسلة. أما اليوم فإن اليابانيين مع أبطال "المانغا" هم المسيطرون على هذا النوع من الأفلام.

7. برامج الترفيه متعددة. فهي تشمل الألعاب والمسابقات والغناء والكاميرا المخفية والسير الذاتية للمطربين والفنانين والأسفار.

8. أما برامج السينما فإنها تقسم إلى أفلام ومسلسلات. قد تكون محلية أو مستوردة ومدبلجة. وقد تخصصت العديد من القنوات فيها. كما أن الأفلام يمكن تقسيمها إلى أفلام خرافات وأفلام وثائقية.

9. البرامج الثقافية تشمل البرامج الأدبية والبرامج الصحية والبرامج التاريخية والبرامج الاقتصادية والتاريخ والجغرافية والمائدات المستديرة والمحاضرات.

ويدخل في إطار البرامج الثقافية، ما خص التعليم. هذه البرامج تعطي دروسا لتلاميذ الثانويات وطلاب الجامعات. ولكنها اليوم في طريق الانقراض وذلك بعد ظهور الانترنت.

8. التلفاز العربي وعصر الفضائيات

1. التلفاز برز في العالم العربي خلال فترات متفاوتة. ظهر في المغرب سنة 1954 وفي الجزائر والعراق سنة 1956 وفي لبنان سنة 1959 وفي مصر وسوريا سنة 1960 وفي الكويت سنة 1961 وفي السعودية سنة 1965. أما قطر فإنه لم يصلها إلا سنة 1970.

2. البرامج التي كانت تذاع في العالم العربي كانت جلها مقلدة البرامج الغربية. مع تفاوت في الأهمية المتاحة لكل برنامج. واللغات المستعملة كانت الفصحى تارة والعاميات المحلية تارة أخرى.

قبل انتشار الفضائيات كانت العديد من البرامج تستورد من البلدان الأكثر نفوذاً. فالجزائر مثلاً كانت تستورد بكثرة المسلسلات المصرية، والمسرحيات المصورة، والرسوم المتحركة.

3. التلفزيون عرف قفزة نوعية عند استعماله للأقمار الصناعية وذلك ابتداءً من سنة 1962. وكثرت بعد هذا التاريخ المحطات التلفزيونية العامة والخاصة في العالم حتى أنها أصبحت لا تحصى ولا تعد.

أما بالنسبة للعالم العربي فإن "اتحاد إذاعات الدول العربية" ASBU التابع لجامعة الدول العربية أحصى في تقريره السنوي لسنة 2020 عدد القنوات العربية الذي بلغ 1394 قناة موزعة حسب الاختصاص كما يلي:

252 قناة جامعة لا تنفرد بموضوع واحد

150 قناة الدراما مخصصة للأفلام والمسلسلات

133 قناة إخبارية

130 قناة دينية

92 قناة رياضية

43 قناة تعليمية

أما من ناحية اللغة، فالعربية تتصدر هذه القنوات بنسبة "71 بالمائة". أما الباقي فهو مخصص للإنجليزية أو الفرنسية أو التركية.

وتستقبل المنطقة العربية من الخارج قنوات ناطقة بلغة الضاد موجهة إليها مثل قناة بي بي سي العربية، وفرنس 24، وقناة روسيا اليوم وقنوات أخرى من الصين وألمانيا وإيطاليا وتركيا وكوريا.

4. من الناحية السوسولوجية فإننا في الجزائر نلاحظ أن النساء اللواتي يمكنن في البيت أصبحن من المدمات على التلفاز ويتابعن بشغف المسلسلات الدرامية وحصص الطبخ. أما الشبان فإنهم ميالون إلى القنوات الرياضية المتخصصة في كرة القدم. وبالنسبة للجيل القديم ممن درسوا بالفرنسية فهم ميالون لمشاهدة القنوات الفرنسية وأصبحوا يعرفون كل ما يجري في الخارج أكثر من الذي يجري في بلدهم.

وبالنسبة للسينما عندنا فإننا نرى قاعاتها منذ انتشار التلفاز قد هوجرت ويرجع هذا إلى أسباب عدة من بينها تكلفة استيراد الأفلام الجديدة بالعملة الصعبة.

5. بالنسبة للغة نلاحظ أن لغات المسلسلات الشرقية بُسّطت كثيرا إذا قارناها بلغة الأفلام القديمة وذلك أن المخرجين انتهوا لمتطلبات الفهم من طرف البلدان التي تتكلم لهجة غير لهجتهم. أما دبلجة الأفلام بالفصحى التي شملت ذات يوم الأفلام البرازيلية فإنها عرفت بعض التقهقر. وبقيت الفصحى المجال المفضل لنشرة الأخبار وأفلام الأطفال والأفلام الوثائقية.

6. التلفاز بصفة مباشرة أو غير مباشرة تعليمي بالمعنى العام. فقد يعطيك معلومات عدة حول الجغرافيا والسياحة والصحة والعقيدة. ومن ناحية اللغة فهو تدريب على تعلم المصطلحات والتراكيب. وهو مجال تركيز

اللغات واللهجات ودسترتها دون قوانين. وقد يكون هذا سببا في خلق جماعات لغوية ضبابية.

7. بالنسبة للحصص الثقافية المبنية على الحوار سواء كانت أدبية أو سياسية أو اقتصادية فإنها تستعمل لغة شفوية تتراوح بين الفصحي والعامية وهو ما أصبح يسمى باللغة الوسيطة أو اللغة الثالثة. والدافع لاستعمال هذه المستوى اللغوي دافعان:

أ. أولهما التعامل مع البلدان العربية على اختلاف لهجاتها فهو إذن مستوى موحد للهجات.

ب. أما الدافع الثاني فهو خلو العامية من مصطلحات العصر. فالعاميات لا تعرف مفردات الاقتصاد والدبلوماسية والمكوك والروبوت والذكاء الاصطناعي والساتل.

2. باب اللغة و أهلها في عصر الحداثة

1. عصر النهضة العربية
2. دسترة العربية
3. العربية وتحديات العصر

1. عصر النهضة العربية

1. بعد تحطيم بغداد من طرف المغول، وسقوط غرناطة والحروب الصليبية المتتالية عاشت الأمة الإسلامية قرون انحطاط أصبح الأدب فيها تقليدا والعلم تكرارا لما مضى. وضيقت العربية مساحات كبرى كانت تسكنها شعوب أخذتها كلغة ثقافة. وانحصرت اللغة العربية في مساحة تمتد من المحيط إلى الخليج وذلك في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

2. أما ما سمي بالنهضة فالكثير يرجعون بدايتها إلى القرن التاسع عشر بعد حملة بونابارت وظهور الطباعة والكتاب والصحافة وكل وسائل الاتصال التي درسناها سابقا. وشملت النهضة المشرق العربي أما المغرب فإنه بقي تحت الاستعمار مدة طويلة ولم يستفد إلا بصفة غير مباشرة من هذه النهضة.

3. من وسائل النهضة التعليم الحديث الذي حاكى التعليم الأوربي من ناحية الهيكلية. فأنشئت المدارس والجامعات. واستفادت البعثات العلمية من ثقافة الغرب. غير أن المغرب عرف حداثة التعليم عن طريق لغة غير لغة أهل البلد مما همش العربية ولم يترك لها إلا المجال التقليدي كموضوع خطاب ودراسة. ولنذكر مثلا أن الجامعة الجزائرية بقيت ممنوعة على الأهالي مدة خمسين سنة ولم تكوّن منهم إلا بعض ممثلي الابتدائي ونزرا قليلا من التعليم الثانوي وأستاذ جامعي واحدا في العربية هو الأستاذ "ابن الشنب".

فالنهضة بالنسبة لهؤلاء البلدان وبالنسبة لكل البلدان العربية الأخرى لم تبدأ فعليا إلا بعد الاستقلال أو قل إنها عمل تدريجي شمل الجوانب المادية كوسائل النقل والفلاحة والصناعة والجوانب الفكرية التي تتجسد في وسائل الإعلام.

2. دسترة العربية

1. كل اللغات تأخذ شكلها الوطني بعد دسترها من طرف السلطة الحاكمة. وقد تكون الدسترة خاضعة لرغبة الشعب أو تكون مفروضة عليه كما هو الشأن عند تشأة الفرنسية.

وتتزامن الوطنية اللغوية مع الوطنية الخاصة بالدولة ففي سويسرا وبلجيكا وكندا الانتماء إلى الدولة لا يتوافق مع الانتماء اللغوي، مما يسبب أحيانا صراعات داخلية تهدد وحدتها. وقد قاد هذا بعض الباحثين إلى الكلام عن الأمن اللغوي.

2. بالنسبة للدول العربية المشرقية نراها تنفصل في بداية القرن العشرين عن الحكم العثماني وتستقل بعد فترة استعمارية غريبة. ورسمت في العالم العربي الإسلامي القديم خريطة جديدة تحدد دولا أبرز مكوناتها الثقافية لغة الضاد.

في شهر مارس 1945 اجتمع ممثلو ثمانية دول هي مصر وسوريا ولبنان والعراق والأردن والسعودية واليمن وفلسطين حتى تكوّن اتحادا. واختلفوا في تسميته. فسوريا اقترحت "التحالف العربي" والعراق "الاتحاد العربي" ومصر

"الجمعية العربية". وفضل الجميع التعبير المصري وأضافوا إليه "جمعية الدول العربية".

وهذا الاختيار له مغزى وهو أنه يريد المحافظة على الهوية اللغوية التي تجمعهم والهوية الوطنية التي تفصل كل بلد عن غيره. وكلمة جمعية أكثر لينا من كلمة اتحاد أو تحالف. وهي توحى بجانب ثقافي أكثر مما توحى بجانب عسكري. وترجمتها مثلا إلى الفرنسية لا توحى بذلك.

3. تأسيس جامعة الدول العربية أرفق بميثاق حدّد أهدافها وتنظيمها، ونذكر هنا بعض نقاطه الأساسية.

أ. حرية اختيار الانضمام إلى الجامعة

ب. مراعاة استقلالية وسياسة كل بلد وعدم التدخل في شؤونه.

ج. التساوي بين الدول وذلك من خلال تكوين مجلس يكون فيه لكل بلد مهما كانت أهميته صوت واحد.

د. المحافظة على السلم في المنطقة وعدم اللجوء بالقوة لفض النزاع بين دولتين عربيتين أو أكثر.

أما البنود الأخرى فهي تحدد قضايا أخرى كالمقر وتعيين الأمين العام ودورية الاجتماعات.

4. الدول العربية المستعمرة انضمت إليها فور استقلالها. وذلك أن الاستعمار لم يكسر شوكة البعد اللغوي عند هذه البلدان. وأصبحت جامعة الدول العربية تضم 23 دولة متجاورة في مساحة تفوق الثلاثة عشر مليون كيلومتر مربع يسكنها ما يزيد عن الخمسمائة مليون فرد.

5. إذا بحثنا عن الديانات الخاصة بالعالم العربي فإننا نرى أن الديانة السائدة هي الإسلام وهي تقارب المائة بالمائة في معظم الدول ما عدى لبنان حيث نسبة المسيحيين تساوي 39 بالمائة وسوريا 8.5 بالمائة ومصر 8 بالمائة. بحيث أن البعدين اللغوي والديني يكونان الهيكل الأساسي للثقافة.

6. علينا أن نتساءل عن الذي يميز سوريا ولبنان وتونس مثلا عن تركيا وإيران؟ من الواضح أن هناك سمات عدة كانت السبب في هذا التمييز. ولكن أبرزها في رأينا متعلق باللغة.

العربية لها وجهان فصيح وعامي. أما الفصيح فهو يكتسب بالتعلم والعامي يكتسب منذ النشأة في المحيط الغائلي أو في الشارع. ولكل بلد عاميته تقبلها وحولها وأبدع فيها ولا يستطيع أحد أن يقول له إنها ليست لغتك.

فكما اختارت البلدان التي انضمت إلى جامعة الدول العربية لغة الضاد ودسترتها في إطار قوانينها مالت بلدان مسلمة أخرى إلى اتخاذ اللغة المحكية كأساس للغتهم الوطنية، فانفصلت هكذا عن العالم العربي، وذلك رغم التاريخ المجيد الذي ربطهم بالحضارة العربية الإسلامية.

3. العربية وتحديات العصر

1. الفصحى هي اللغة التي توحد بين جميع البلدان العربية، والعامية هي التي تميز بينها. ولكن هذا التمييز ليس فصلا، لأن العاميات متشابهة في بنيتها متقاربة، غير غريبة عن اللغة التي انحدرت منها. والازدواجية اللغوية أي "الديغلوسيا" موجودة في عدة لغات. فاليوم في فرنسا مثلا يتكلم الشبان بلغة لا يكاد يفهمها الجيل القديم.

2. غير أن الديغلوسيا في العربية عميقة جدا ولا داعي لنكران ذلك ولا جدوى في التعلل بما هو موجود عند الغير.

فلنفرض مثلا أنك أردت أن تعبر عن تغيرات الجو بواسطة الفصحى، وقلت مثلا: "وعدتنا النشرة الجوية بسقوط أمطار غزيرة" ثم أردت تحويل هذه الجملة إلى عامية جزائرية مهذبة، تتقبل مركبات فصيحة من النوع: "النشرة الجوية" و"الأمطار الغزيرة" فإنك تضطر إلى تعبير آخر من النوع: "تقول لنا النشرة الجوية بأن أمطار غزيرة رايحة تسقط" وتجد نفسك كأنك تترجم من لغة إلى أخرى.

هذا عن الجزائري الذي يخاطب جزائريا يفهمه، أما المصري أو اللبناني أو العراقي، فإنه سيلجأ إلى تعبير آخر.

3. العاميات العربية عند انفصالها عن الفصحى أخذت اتجاهات مشتركة يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:
أ. حذف علامات الإعراب أو التصرف فيها.

ب. حذف المشني.

ج. حذف نون النسوة.

ولكنها لم تكتف بهذا. فعلى المستوى الصوتي نراها تخفف الهمزة أو تحذفها، كما نراها تقلص من دور الحركات التمييزي بين الوحدات الدالة مما أدى مثلاً إلى تغيير المبني للمجهول.

وعلى المستوى الصرفي نراها تستغني عن الكثير من الأوزان ولا تبقى إلا على ما هو أساسي.

أما على المستوى المعجمي فإنها أخذت من المفردات الفصيحة إلا ما هي في حاجة إليه. أضف إلى هذا أنها عرّبت بطريقتها الخاصة كلمات الحدائث مثل "سندويتش" و"ماشينة" و"بورتابل" مما غير من أصالتها.

كل هذه القضايا في حاجة إلى دراسة معمقة من طرف الباحثين. لأن الدراسات العلمية، الصريحة هي الوحيدة التي تستطيع أن تعالج هذه "الديغلوسيا".

4. هذه الازدواجية يعاني منها التعليم وبالخصوص تعليم العربية للأجانب. فالفصحى هي التي تلقن لهم. ولكن الفصحى لا تمكنهم من التعامل مع لغة الشارع إلا بمشقة.

فعلى تعليمية العربية للأجانب إذن أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة وألا تتغافل عنها.

كما أن التعليم لأهل اللغة أنفسهم عليه أن ينطلق من مكتسبات موجودة بصفة فطرية عند الأطفال على مستوى النطق والصرف والتركيب.

5. من الواضح أن السياسات اللغوية هي من أهم العوامل التي تطور اللغة. والسياسات اللغوية لا تأتي من الهيئات الرسمية وحدها. فهناك مؤسسات حرة تلعب دورا هاما في هذه السبابة.

المسؤولون عن الأفلام مثلا لهم دور مهم في تقرب المنطوق العامي من الفصح. ويتمثل هذا في تهذيب الحوار وتعميم الدبلجة بالفصح، واستعمال لغة الحدائثة في كل المجالات.

6. وبالنسبة للمسرح فإن لغته أصبحت كلها عامية عندنا، بينما نرى الفرنسيين مهتمين اهتماما بالغا بموليير وراسين والإنجليز بشكسبير. ومسرحياتهم لها وجود قوي على الخشبة وعلى شاشات التلفاز. أما نحن فإننا رمينا في مهملات النسيان مسرحيات شوقي، وتوفيق الحكيم وغيرهم.

7. دخلنا منذ القرن الماضي في عالم تواصل جديد، لعبت فيه الشركات الإعلامية الكبرى دورا هاما. هذه الشركات دافعتها التجاري جعلها تهتم بكل اللغات. واستفادت العربية من هذه السياسة وأصبح لدينا "غوغل" عربي، و"فايسبوك" عربي، و"تويتر عربي".

أما هواتفنا الذكية فإنها تشتغل باللغة التي نريدها. غير أن هذه الهواتف أبرزت إلى الوجود عامية مكتوبة واردة في الرسائل القصيرة. هذه العامية لا تملك إملاء مضبوطا، وهي تمتزج مع الفصح. وقد يكون هذا المزج خطرا على سلامة الفصحى وذلك منذ نشأة الذكاء الاصطناعي المبني على الاحتمال والتعلم والذي لا يميز في كثير من الأحيان بين الخطأ والصواب.

هذه القضية عليها أن تعالج من طرف اللغويين والمهندسين على السواء حتى يُفصل بين الخطاب العامي والفصيح وهو ليس بالشيء الهين.

8. كون العالم أصبح حسب العبارة الشهيرة "قرية صغيرة"، استلزم اللجوء إلى لغة مشتركة هي اليوم الإنجليزية. هذه اللغة أصبحت أداة تواصل الباحثين على اختلاف أجناسهم ولسنتهم. والسؤال الذي يطرحه الكثير عندنا هو الآتي: "ما فعل العرب بلغتهم حتى يلتحقوا بهذا الركب الذي يسير بخطى حثيثة؟"

في الحقيقة كل اللغات في هذا المجال متساوية، وكلها خاضعة في أعلى مستويات العلم إلى "الإسبرنتو" الجديد الذي تمثله الإنجليزية.

قد يحوز مصري يبحث في أمريكا على جائزة "نوبل" وقد يطور جزائري الذكاء الاصطناعي عند غوغل، أو يخترع سوري "روبوت" في اليابان، فهذا فخر للبلدان التي كونت هذه الأدمغة. ولكن هل هذا عيب في العربية وفي البلدان التي اعتمدها؟ لا أظن هذا. إن معظم باحثي "السيليكون فالي" أجانب ولا أحد يطعن في لغتهم الأصلية وفي البلدان التي نشئوا فيها.

العولمة الملتفة حول الإنجليزية لا تكوّن في رأينا خطرا كبيرا على لغات العالم. فكل الشعوب تعزز بلغاتها وتعمل قصارى جهدها للحفاظ عليها.

وإن وجد نقص عندنا فهو متمثل في ضعف البحث الخاص بالعربية في مجالات جديدة كالترجمة الآلية والذكاء الاصطناعي وهو ما يتطلب سياسة حكيمة من طرف جميع الفاعلين

المراجع

مختصر المراجع بالعربية:

- ابن درستويه عبد الله، كتاب الكتاب، الكويت 1977.
- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993.
- ابن هشام الأنصاري: شرح قطر الندى وبل الصدى، دار الجيل، بيروت، 1996.
- أبو الفرج قدامة بن جعفر: جواهر الألفاظ، دار الكتاب العلمية، بيروت 1971
- أبو القاسم الزجاجي، كتاب الخط، نشر في مجلة المورد، 1990
- أبو القاسم الزمخشري، المفصل في علم العربية، المكتبة العصرية، بيروت، 2009
- أبو بكر بن السراج: كتاب الخط نشر في مجلة المورد.أبو زكريا الخطيب التبريزي: شرح قصيدة كعب بن زهير بانة سعاد مكتبة الآداب، بيروت، 2018.
- أبو علي محمد المستنير المعروف بقطرب، دار العصماء، دمشق، 2016.
- أبو عمرو عثمان بن السعيد الداني:المحكم في تنقيط المصاحف، دمشق 1960.
- أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، المكتبة العصرية، بيروت 2001
- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2012
- أحمد أمين، حياتي، المكتبة العصرية، 2009م.
- جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة د. خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس 1992.
- حسين بن أحمد بن حسين الزوزني: شرح المعلقات السبع دار إحياء التراث العربي، بيروت 2002م.

-رشدي راشد، من الخوارزمي إلى ديكارت، دراسة في تاريخ الرياضيات الكلاسيكية، مترجم من الفرنسية، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2018.

-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر 1988

-عبد القادر الجرجاني: أسرار البلاغة المكتبة العصرية، بيروت 1998.

-محمد الخطيب: تاريخ الحضارة العربية دار علاء الدين، دمشق 2002.

-محمد بن يوسف أطفيش: كتاب الرسم في تعليم الخط، المؤسس الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

-مصطفى الرافي: حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة. دار الكتاب اللبناني، بيروت 1978.

-مصطفى حركات: اللسانيات العامة وقضايا العربية، دار الآفاق، الجزائر، والمطبعة العصرية، بيروت 1996.

-مصطفى حركات، الكتابة والقراءة وقضية الخط العربي. دار الآفاق، الجزائر والمطبعة العصرية بيروت 1996.

-مصطفى حركات: نظرية الإيقاع، دار الآفاق، الجزائر، 2008.

-مصطفى حركات: العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، دار الآفاق، 2017.

مختصر المراجع باللغات الأجنبية:

-Ch.Bally, *Traité de stylistique*, Klincksiek, 1951.

J.Derrida, *De la Grammatologie*, les Editions de Minuit, Paris, 1967.

-Fontanier, *Manuel clasique pour l'étude des tropes*, Paris 1822

-M.Harkat : *Le récit khalilien*, Cahiers de Pétique comparée, Paris, 1986

- M.Harkat : Métrique arabe, structures et transformation, Mezura, Paris 1979.
- M.Harkat : Wazn, théorie métrique de la poésie arabe,
- C.Higounet, L'écriture, PUF, 1997.
- R.Jakobson, Essais de linguistique générale, 2007.
- M.Mac Luhan, La Galaxy Gutenberg
- R.Meynet, L'écriture arabe en question, Beyrouth, 1971.
- A.Miquel, La littérature arabe, « Que sais-je ? » PUF 1969
- H.Morier, Dictionnaire de poésie et de Rhétorique, PUF, 1961.
- G.Mounin, Clefs pour la linguistique, Seghers, 1968.
- G.Mounin, Linguistique et traduction, Dessart et Mardaga, 1976
- A.Piolet, Ecritures, approches en sciences cognitive, Université de Provence, 2004
- E.Sapir, Linguistique, Gallimard 1991
- E.Sapir, Le langage, petite bibliothèque Payot, 2001
- D. Sourdel, l'Islam, « Que sais-je ? », PUF 1975
- D. Sourdel, Histoire des Arabes, « Que sais-je ? » PUF 1980
- A.Spire, Plaisir poétique et plaisir musculaire, Paris, Corti, 1949
- P.Valéry, Questions de Poésie, œuvres complètes, Paris, la Pléiade.
- G.Wiet, L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane, Paris, 1934.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرعاية - الجزائر - 2023
Achévé d'imprimer sur les presses ENAG, Réghaia - Alger - 2023
Bp 75 Z.I.Réghaia Tél : (023) 965610/11